

عبد الغني الدقر

مَحَامِرُ

فِي الدِّينِ وَالتَّسَارُجِ وَالْاجْتِمَاعِ

١٣٧٢ - ١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين

أما بعد فهذه محاضرات ألقى بعضها في ردهة المجمع العلمي العربي ، وبعضها في دار الاذاعة السورية ، وبعضها في المساجد والاندية ، ونشر بعضها في المجلات والصحف . وكل هذه المحاضرات تجمعها فكرة واحدة : هي الفكرة الدينية الموجهة ، بأسلوب حديث ، وعرض جديد .

وأعترف بأن هذه المحاضرات لم تكتب حين كتبت وألقيت ، لتجمع وتبرز للناس كتاباً ، وإنما كتب أكثرها استجابة لطلب مستعجل ، وسيرى القارئون فيها أثر السرعة في الانجاز ، ولقد كنت أدفع للمطبعة بالمحاضرات قديمها وحديثها من غير تبديل الا مادعاني الاجاز الى حذفه من بعض الجمل أو المقاطع . أقول هذا اعتذاراً عما يمكن ان يلاحظ في بعضها من ركاسة او غموض او خطأ . واذا صادف احد شيئاً من ذلك فله خالص شكري إن أصلحه أو نبهني عليه . وقد وقع - لاشك - بعض الاخطاء المطبعية لعدم العناية الكافية بتصحيح التجارب ، فوضعت لأكثرها جدولاً للخطأ والصواب في ختام الكتاب ، فالخير لي وللقارئ أن تصحح قبل الاقبال على قراءته ، وأما ما لم أسجله في جدول الخطأ والصواب فقد تركت تصحيحه لفطنة القارئ . ولولا تشجيع الجمعية الغراء وبعض المستمعين - اذ رأوا في نشر هذه المحاضرات مجموعة في كتاب فائدة وخيراً - لكان ينبغي - في رأيي - ان تكون حبيسة محجوراً عليها ، ومهما يكن من شيء فان الفضل في نشر هذا الكتاب يعود الى الجمعية الغراء فان رأى القارئون فيه خيراً فليعودوا بشكرهم اليها وإن رأوا غير ذلك فاللوم لي من دونها .

في ٢٧ رجب ١٣٧٢ . موافق ١١ نيسان ١٩٥٣

عبد الغني الرفعة

فهرس المحاضرات

صفحة		صفحة	
١٥٤	الفش	١	الشباب في عهد الرسول
١٦٢	من هنا كانت تشرق شمس	٤٤	في ذكرى المولد
	الاسلام	٥١	منقذ المرأة
١٦٨	ليلة سمر في القرن الرابع	٦١	مواثيق الاسلام
١٧٨	شهادة صائبي بثلاثة اعلام	٦٨	الصراط المستقيم
١٨٤	تكويننا الاجتماعي وكيف	٧٤	الحياة والنور
	يجب ان يكون	٨٠	الثبات على المبدأ
١٩٥	جولة في كتاب	٨٧	القرآن والعلم
٢٠٢	الصوم ارادة وحرية ورياضة	٩٤	ابو بكر الصديق
	روحية	١٠١	عمر بن الخطاب مع عماله
٢٠٨	صيام المتقين	١٠٩	العدالة الاجتماعية
٢١٣	حكمة الصيام في مواساة	١١٦	صور من العدل في الاسلام
	المعوزين	١٢٣	محمد المجاهد الاول
٢١٩	رمضان موسم عبادة	١٢٩	الدين والنظام
٢٢٤	وداع رمضان	١٣٤	الامانة
٢٢٨	جدول الخطأ والصواب	١٤١	مفاتيح الخير ومفاتيح الشر
		١٤٨	المسجد في الاسلام

الشباب في عهد الرسول ﷺ

على رأس الأربعين، ذروة^(١) الشباب ، حين تستحصد المرة^(٢) ،
وتكتمل المواهب، وتنضج القوى، برز محمد ، صلوات الله عليه ، رسولاً
الى العالمين ، بالهدى ودين الحق ، بعد أن دخل هذه المدرسة التي تصنع
الرجال ، وتخرج العباقرة ، المدرسة الاجتماعية الكبرى ، مدرسة الحياة ،
فلقد دخل هذه المدرسة بأرهدف استعداد ، هو استعداد النبوة ، لتتحك^(٣)
فيه بشريته ، على النحو الذي استنه الله للبشر في هذا الكون ، ليلقى
الناس بعد برسالة ، على سنن^(٤) من طبائعهم وغرائزهم وأحاسيسهم ،
وما جعل الله رسوله بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، الا لينفذ
في ذلك ارادته ، في ابتعاث الانسان الكامل ، الذي يكون مثلاً
واقعياً أعلى للانسانية ، في أشرف منازعها^(٥) ، وأخلص سرائرها ، وأسمى
ميولها ، في أعلى الحدود الممكنة ، لمخلوق سواه الله من لحم ودم ، وميزه

[١] ذروة كل شيء أعلاه. [٢] المرة : قوة الخلق وشده. [٣] تحكها التجارب

[٤] السنن : الطريق . [٥] المنازع : جمع منزع وهو الميل .

بالعقل والقلب ، ولو شاء الله لجعل رسوله ملكاً ، وعطّل من أسبابه التي أحكم بها نظامه ، وأتقن صنعه ، وإمكّنه بعثه رسولاً من أنفسنا ، لبث عمره يعاني فيه من ضروب العيش مانعاً ، ليكون بمكان من الحنكة الاجتماعية يجتديه الله بها ويصطفيه ^(١) ، اذ أن الاصطفاء أن يختاره الله قادراً على سياسة التبليغ ، وبث الدعوة من دون الناس جميعاً ، ولا يكون ذلك إلا بسبب من معالجة أمور الناس ، والتقلب في أعطاف الزمن ، وهكذا كانت حياة النبي ﷺ إلى أن نزلت عليه الرسالة ، فقد ضحى ^(٢) إلى هذا الوجود كما يضحى العصامي ، فاقداً أول من يجب أن يراه بعد أمه ، وهو أبوه ، ليتلقى الحياة مباشراً وبغير ما واسطة ، وليحو من نفسه أول ما يحو غريزة التواكل ، ويكتنز أول ما يكتنز فضيله الثقة بالنفس والاعتماد على الخالق وحده ، وإنساً ^(٣) الله له في أجل أمه ، ريثما تتم له حضانة طيعية مأمها بد ، ولكن الله استلها من حوله بعد أن أدت مهمتها وأردفها بمجده ، بعد أن كفّل به سنتين ، فبقي وحيداً يرعاه ربه وهو في السنة الثامنة لا يُلْفِي من يصاه من رحمه إلا عمّه أبا طالب ، وهنا قذفه الله في حياة شعبية عادية ساذجة ، فاصطنعه راعياً للغنم ، يعلمه بذلك قيادة أولية ، على قدر ما يمكن أن يحتمله

[١] أي يختاره . [٢] أي برز . [٣] أي أبعد وآخر .

العقد الاول من العمر ، ويعرفه حالاً يحسها بنفسه ويجد مسها بقلبه ،
حالا لا يهبط اليها بالعادة العظماء ، وان كانها حال ما أجدرها بالرجل يُنشأ
عظيماً ، ثم زجه ^(١) في الاثنتي عشرة من عمره في أتون ^(٢) مستعري تجلى
فيه الشر بيدي ناجذيه ، وهو الحرب حرب الف جبار ، التي شهدها مع عمومته
يجمع لهم فيها السهام ، ويشرف على الكر والفر ، يصلب بذلك عوده ،
ويعرف وجهاً من حماقة الانسان حين يصلح الحرب جذعة ^(٣) ، على تافه
لا يؤبه له ، وحضر بعدها حلف الفضول ، الذي يحدثنا عنه بعد الرسالة
بقوله « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ، ما احب
ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت » وما ناهز
العشرين واستقام له الأمر ، إلا وانطلق مع قومه يعاملهم ويعاملونه ، ويتعرف
أخلاقهم ، ويتعرفون خلقه ، عن طريق الاتجار ، والحرب في الارض يتغني من
فضل الله ، وهل أحسن منها فتنة له ولقومه ، تسفر عن خبيثة كليهما ، فقد ظفر هو
بالكثير مما هم فيه خير أو شر ، وظفروا هم ابضاً بما قدروا عليه ، حتى توجه بقلب ،
الامين بما وقعوا عليه من كمال معاملته عليه السلام ، ثم دخل بعد ذلك الحياة المركبة
حين تزوج بخديجة ، بعد ان استأجرة لالاتجار بما لها . ولما بلغ الخامسة والثلاثين

[١] قذفه [٢] أصله موضع حرق الحجارة [٣] أي حديثه قوية .

من عمره ، امتحن الله بصيرته وعقله واهليته وأهفته ، في اخطر امر وأحرجه ، ذلك حين احتكم اليه العرب فيما يندربداهية دهماء ، من تنازع بطون قريش وغيرها على وضع الحجر الاسود ، لولا ان تداركها عليه السلام بحصافة عقل ^(١) ، وحكمة رأي ، حقن ^(٢) بهما دماءهم ، واسكت حفاظهم ، وهدأ من نعرتهم ^(٣) ، فأثاب فيه بعد الأمانة ، الرجل المسدد الرشيد ، والأريب اللبيب ، وما أتى عليه من عمره اربعون حتى كان اعظم الرجال بصراً ومرونة وحنكة ، قد عجم ^(٤) قومه وعجم زمنه ، وعرف من أسرارهما ما يجعله اهلاً لأن يختاره الله رسولا يبلغ آيات ربه وينشر دعوته . وهذه النهضة الاسلامية الكبرى التي رجت الأرض رجاً ، ومدت رواقها على الشرق والغرب ، وامتدت اربعة عشر قرناً ، ويحصى افرادها اربعمائة مليون ، تتحكم كثيراً في مقدرات التاريخ العام ، وتعد الحضارة العالمية بقسم كبير ؛ ويذبح فيها علماء وفلاسفة ومكتشفون وحكماء ، ويذبح فيها امراء وقادة وسياسيون ، هذه النهضة كلها مدينة بالقسط الكبير الى شخصية النبي في سياسة التبليغ ، التي وكل الله امرها اليه ، ومرغمة على الاعتراف ، بأنه اعظم مرب للافراد والشعوب ، منذ خلق الله الخلق ، وما

[١] أي عقل متين مستحكم . [٢] حفظ . [٣] النعرة : الخيلاء والكبر . [٤] اختبر

ابتعثه الله الا وتهدفيه رجولة جبارة، تحترق بدهائها كل صعب، وتخطى كل عقبة، في سبيل ما أرسلت من اجله، ولن نستطيع ان نستوفي بمحاضرة القول في هذه الرجولة العظيمة، فلنجزى بالقول عما نحن بسبيل منه .

من زينة علم السرم

لبث رسل الاصلاح، وعلماء التربية، وفلاسفة الاخلاق، نحواً من ثلاثين قرناً، ينفقون جهدهم، ويبذلون قرائنهم، في اكتناه اسرار الانسان، والبحث عن غرائزه وأطواره، والتنقيب عن عواطفه وميوله، والسَّبر^(١) لتفكيره وذكاؤه، ومدى نشوء ذلك كله في الافراد والجماعات، يتقرَّون^(٢) بذلك كل دقّة وجليلة، ويتقصّون^(٣) المستسر^(٤) والمبهم، ويتفحصون الامور على وجوهها، حتى انتهوا الى ان نقضوه هذا الهيكل الانساني فنتروه ذرات كالجوهر الفرد، وقتلوه بالبحث والتنظير، وهم مازالوا يُعنون بهذا النوع من التشريح، ويركبون اليه كل صعب، ليقوموا من أوده^(٥)، اوليبعثوه من جديد، في مدينة فاضلة، تغفو^(٦) فيها الآثام والشرور، وتنشر فيها السعادة، كل ذلك، والانسان هو الانسان، وما ندري بعد هذه الاحقاب،

[١] السبر : الاختبار [٢] أي يتبعون [٣] يتبعون حتى النهاية [٤] الخفى

[٥] أي اعوجاجه [٦] أي تمحي

هل يأتي ذلك الحين الذي ينزل فيه هؤلاء العلماء من أبراجهم ، فيجمعوا
الانسان بعد ان ثروه ، ويحيوه بعد أن قتلوه ؟

ولكن الأمر الذي يثير الدهشة ، ويدعو الى العجب والاعجاب ،
ان يكون المستأثر بالتربية النفسية العملية ، النبي العربي الامي ، محمد رسول
الله ، وما نقول ذلك لأننا مسلمون ، بل لان الواقع يؤكد ذلك ، والاثار
البليغ دليله ، فلقد ربى عليه السلام جيلين ، فمن الطفولة الى الشباب ، ومن
الشباب الى الشيخوخة ، وأبدى في تربيته هذه قدرة خارقة ، مكنته ان
يتناول بيسر ما عجز الجهابذة من الحكماء ؛ فقد سائر الطبيعة الانسانية
مسايرة محكمة دقيقة في جميع أطوارها ، وأتى ^(١) السبل للفرائر لتجري
مطلقة على قدر النمو ، من غير شطط يؤذيها وينال منها ، مزاجاً فيها بين
الميول والاحاسيس ، ومراعياً فيها نظام الطبائع ، يستثمر ذلك كله لتزكية
النفوس وتقويتها واصلاحها ، عن طريق سائفة لا تصادم الا مزجة ولا
تعاكس الفطر .

فاذا انتهى الطفل مثلاً الى السن التي يجدون فيها انفسهم مرتاحة
لنوع من اللعب ، لم يكبت رغبتهم فينكمشوا على انفسهم ، ويقلص ^(٢)

(١) أي مهدها وسهل طريقها . (٢) أي ينكمش

مرحبهم ونشاطهم و يذوي (١) بذلك روحهم ؛ لم يمنهم من اللعب ، بل كان يغريهم به ، ويشجعهم عليه ، ويظهر لهم رغبته بذلك وحبه وحنوه ، فعن عبد الله بن الحارث قال : « كان رسول الله (ص) يصفُ عبد الله وعبيد الله وكثيراً نبي العباس ويقول : من سبق الي فله كذا ، فيستبقون على ظهره وصدره ، فيقبلهم ويلزمهم » . وعن علي : « أن النبي (ص) كان قاعداً في موضع الجائز ، فطاع الحسن والحسين فاعتركا ، فقال رسول الله وعلي جالس ، ويهاً (٢) حسين خذ حسناً ، فقلت تؤلب علي حسن وهو أكبرهما يارسول الله ؟ فقال رسول الله : هذا جبريل قائم وهو يقول ويهاً حسناً خذ حسيناً » وما كان يمنعه الوقار ان يشاركهم بالمداعبة والمجامله ، فكثيراً ما استخفهم الى اللعب كما يصنع الترب مع الترب (٣) ، فيثب الحسن والحسين على ظهره الشريف ، فيمسكهما بيده ، حتي يرفع صابه ويقوما على الارض فاذا فرغ أجلسهما في حجره ، كما روى ذلك ابو هريرة . وعن جابر قال : « دخلت على النبي (ص) وهو يمشي على اربع وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول : نعم الجمل جملكما ونعم العدلان اتما » ولقد كان هذا دأبه مع الصغار الذين تكثر رؤيته لهم وهم بين ظهرانيه ، وما كان يفرق بين اقرب الناس

(١) أي يذبل (٢) ويهاً . كلمة اغراء [٣] هو المقارب بالسن .

اليه وابعدهم منه ، ولا بين أولاد القرشيين الهاشميين والموالي المملوكين ،
حتى اذا حاق ^(١) باحدهم مكروه ، بادره فرفه عنه ، وطيب بذلك نفسه ،
وأزال الغشاوة عن قلبه ، واحسن مداعبته قالت عائشة : « عثر اسامة بعتبة
الباب فشج في وجهه ، فقال لي رسول الله اميطي عنه الأذى ، فقد رته ،
فجعل رسول الله يحس الدم ويمجه عن وجهه ويقول : « لو كان اسامه جاريةً
لكسوته وحليته » . وقال عطاء بن يسار : « كان اسامة بن زيد قد أصابه
الجُدري اول ما قدم المدينة وهو غلام ، مخاظه يسيل على فيه ، فتقذرت عائشة ،
فدخل رسول الله ، فطفق ينسل وجهه ويقبله ، فقالت عائشة : أما والله بعد
هذا فلا أقصيه ابداً » وهكذا كان يشمله بعنايته ، ويضمهم الى صدره ، ويسط
لهم بشره وعطفه ، وينشر عليهم جناح رحمته ، قال أسامة بن زيد : كان
الذي (ض) يأخذني فيقعطني على فخذه ، ويقعد الحسن بن علي على فخذه
الآخرى ، ثم يضمنا ، ثم يقول : اللهم اني أرحمهما فارحمهما » . ما كان النبي ليهمل
شيئاً مما ينبغي لتكميل مواهب الصغير ، وتقوية عواطفه ، وتطهير دخليته
حتى القبلة يرسمها على وجهه ، بل ربما امر بها ونال ممن ترفع عنها ، ففي
البخاري عن أبي هريرة ، قال : « قبّل رسول الله الحسن بن علي ، وعنده

[١] اي احاط به .

الاقرع بن حابس التيمي جالساً ، فقال ان لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم احداً ، فنظر اليه رسول الله (ص) ، ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » يفعل كل ذلك رسول الله ، ليُعد الصغيراً ثم إعداد ، فيقدم على التمييز ، وقد سُحذت مشاعره ، وأرهفت حواسه ، وتفتح وعيه ، وانضجت طفولته ، لم يفقد الحنان فتضطرب عواطفه ، ولم يُنهته^(١) عما يريد من المحمود بالطبع فيكبت شعوره وتحطم مغنويته ، ولم يُبذو يُحتقر ، فيحنق ويحقد ويكيد ، وإنما يبرز قوياً غير ضعيف ، نقياً غير موبوء ، قد أخذت طبيعته حظها من نفسه ، واستكملت عملها فيه . وهذا اللون من التربية هو المنصر الفعال لايجاد المبقرية ، وهي العلاج الوحيد لتزكية العقل الضعيف ، وفتح النفس المغلقة ، وبسط الشعور المنقبض ، وهي من اكبر الذرائع ، لبث الطموح وغرز روح الاقدام ، والثبات عند المفضع من الامر .

هذه صورة مصورة لتربيته عليه السلام ، لمن هو دون السابعة او الثامنة من العمر ، فاذا جاوز الغلام هذه السن الى التمييز ، فهناك شكل آخر من أشكال التربية ، يسير معهم فيه على غرار قاعدة في التربية تقول : « عامل ولدك معاملة الرجال لا يلبث ان يصبح رجلاً » ، فقد كان عليه

[١] ينهته : اي يزجر

السلام يفسح لهم المجال بين الرجال ، ليثبتوا أشخاصهم ، ويروضوها على ان تأخذ مكانها الاجتماعي ، ليستطيعوا ان يستقبلوا الحلم مؤتلف (١) الرجولة ، مكنين (٢) قادرين ، قد شغلوا بحق ماملاً وامن الفراغ وقاموا بواجبهم في الحياة اتم قيام ، فدعاهم عليه السلام في هذا السن الى الاسلام ، وكلفهم بالقيام بأمر الدين ، وعلمهم آياً (٣) من القرآن ، وأهداهم أروع نصائحه ، ووصاهم بأبلغ وصاياه ، وقبل معاونتهم في الغزوات اذا لم يباشرو القتال ، الا قليلاً منهم قد باشروه فعلاً ، وعني بتأديبهم وتعليمهم ، وقد بايع بعضهم كما بايع عقلاء الرجال بل عامل بعضهم ، كما يعامل سراة (٤) الناس وكبارهم ، فقد أخرج الأفاضلة من عرفه من أجل غلام افطس أسودينة نظره ، وذلك هو أسامة بن زيد ، فقال أهل اليمن انما حبسنا من أجل هذا ؟ قال عروة : ولذلك كفر أهل اليمن من أجل ذا . قال محمد بن سعيد : قلت ليزيد بن هارون ، ما يعني بقوله كفر أهل اليمن من أجل هذا ، فقال ردتهم حين ارتدوا في زمن أبي بكر ، انما كانت لاستخفافهم بأمر النبي (ص) . والحق ان رسول الله كان يري مالا يرون ، وهذه الحكمة في التربية هي التي جعلت من علي خليفة عالماً عادلاً عبقرياً ، وجعلت من ابن مسعود قارئاً عالماً ، وجعلت من ابن عباس عالماً

[١] اي مبتدئها . [٢] واحد . مكنين وهو الثابت المتعكن [٣] جمع آية [٤] السراة اشرف الناس والواحد سري .

أكبر وهو لا يزال شاباً ، وجعلت من اسامة ، بطل الابطال ، وكمى
النزال ، وأمير الرجال ، ومما امتازت به تربيته العناية عليه السلام ان كان
في هذه السن ايضاً ، حسنُ التوجيه الذي يوفق به بين الاستعداد
والرغبة ، يُعَيِّن بذلك لهم اهدافهم ، ويُذَكِّي اليها همهم ، ويُعَبِّد لهم
شطرها ^(١) طريقهم ، ليكونوا بئامن من عادات ^(٢) التردد والاضطراب ،
وتشعب الطرق والاعراض ، لئلا تضع ملكاتهم ومواهبهم ، ويخفت
توئبهم ، ويُقْضَى على نشاطهم . كل هذا ، ولم يبلغ الاطفال الحلم ، فاذا
بلغوا الحلم او السن الخامسة عشرة ، فهناك الشباب ، وهناك الرجولة ،
أولست الطبيعة قد أعدته لذلك ، فأمرَّت عوده وصاَّبت مغمره ، فما
عليه بعدها الا أن يشغل مكانه بحق في هذه الحياة ويقوم بعمله المهيأ
له ، فليس بعد هذه السن ينتظر .

مخبره عليه السلام اول سن السَّاب :

كان من آثار تلك الشعلة التي أضاءت ربوع مكة وبطاحها ، وتلك
الفورة التي غزت القلوب والعقول ، وتلك التربة الرفيعة التي استهوى

[١] اي نحوها [٢] جمع عادية وهي البعد او الشغل يصرفك عن الشيء

[٣] اي ينهضون .

فيها الرسول الصغار والكبار ، كان من آثارها ، ان دبت الحيوية في نفوس هؤلاء الولدان ، فجعلوا يستبقون الى العمل ، وينهضون^(١) الى الجهاد ، قبل ان يكون لهم من السن ما يسمح لهم بهذه المغامرات الصعبة ، ولكن رسول الله كان يأخذ بحُجُزهم^(٢) عن اقتحام هذه الاهوال التي ما كان يراهم اكفاء لخوضها ، وتصلية جحيمها ، قبل بلوغهم الخامسة عشرة من عمرهم ، فرد منهم الكثير لا يراهم بلغوا هذه السن ، يوم عرض قومه في وقعة أحد منهم عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ارقم ، والبراء بن عازب ، واسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وابو سعيد الخدري ، وسعيد بن خيشة ، الا فئة قليلة ، كان لها من قوة الاقدام ما ذلل لها ارادة النبي (ص) في اجازتها مع المحاربين ، فهذا عمير بن ابي وقاص ، حين ابى عليه النبي ان يخرج في غزوة بدر بكى ، فاجازه حين رأى منه عزيمة ماضية ، وصدقاً نادراً ، وهذا سمرة بن جندب قال لزوج امه وقد استفزه ان اجاز رسول الله رافع ابن خديج في غزوة احد قال : اجاز رسول الله رافع بن خديج وردني وانا اصرعه ؟ فأعلم بذلك رسول الله ، فقال : تصارعاً . فصرع سمرة رافعاً

[١] اي ينهضون [٢] اي يكفهم

فأجازه ، كل هذا يدلنا ان النبي (ص) كان يعتبر الخامسة عشرة إبان^(١) سن الشباب ، حتى قال بعضهم ، إن هذه السن هي الحاجز بين الصغير وسن التكليف ، فاذا انتهى الفتى الى هذه السن ، فذاك اوان استعداده لأن يضطلع باعباء الرجال ، ويستقل بمهماتهم ، وينهض بتكاليفهم ، مزدفعاً في هذا الخضم ، يعمل وينتج ، بقلب حي ، ونفس دؤوب ، وامل بارق ، ولقد صرف النبي عليه السلام الى الشباب وجهه ووجهته ، ليكونوا كذلك ، وقد كانوا ، حتى جعلهم عمده في جميع ما يتعلق بدعوته من اعمال كبيرة خطيرة ، من جهاد وإيمان وعلم وقضاء ، وكان لهم في نفسه من المكانة ما رفع اقدارهم ، وبوأهم اشرف ما يصبون اليه من الكرامة والسؤدد والجاه العريض .

تشجيعه عليه السلام الشباب وعنايته بهم :

يكون التمايز بالقوة والصحة والتفضيل ، بين فكرة وفكرة ، بمقدار ما يكون لاحدهما من القدرة على النفوذ الى عالم الواقع ، والجري معه كأنها جزء منه ، لا تحيد ولا تريم^(٢) فان ضؤل نصيبها من الواقع

[١] اي اول سن الشباب [٢] اي لا تزول

فبقدر ضؤولته يكون الضعف التقلص والانحلال ، فاذا لم يكن لها في عالم الواقع اي اثر ، فذلك من الخيال والى الخيال ، وهي الى 'طرفة اديبة اشبه منها الى فكرة عملية ، فالرأي في الشيء ليس دائماً معناه العمل به ، فقد يكون هناك مرب عظيم ، عرف الشيء الكثير عن الانسان ، وله فيه مذاهب وآراء ، واضعاً تلقاءه الاهداف والمثل العليا ، فاذا باشر العمل ، عى بامرهِ (١) فأدركه العثار (٢) ، وكبت به الزناد (٣) .

ولكن رسول الله زاوج بين الفكرة والعمل مزاجية تجعل الفكرة الصالحة لا تنفك عن التنفيذ ، كالزهرة الطيبة لا تملك ان تنكم اريجها (٤) ، او كالفكرة قد اندججت في العمل ، كما اندججت نوااميس الوجود في الوجود ، ممداً ذلك كله بعقله الراجح وعاطفته النبيلة ، وسامياً عما يسم الانسان بالنقص ، ويهبط به الى درك من الملق الكاذب ، والفخار الاجوف ، فهو في معاملته الناس وتربيته لهم ، عملي دقيق حقاً ، يبذل من نفسه لكل صغير او كبير ، ما يكفيه ذاتياً لتكميله ورفع مستواه ، وما يكفيه لما يمكن ان يتفقع منه المجموع ، فلقد كان عليه السلام يرى للشباب

[١] اي عجز [٢] اي السقوط والوقوع والمعنى هنا مجازي [٣] جمع زناد وهو العود الذي يقدح به النار وكبا الزناد اي لم يشتعل [٤] اي طيب رائحتها .

من حقهم الذاتي الذي به يتأهبون لأجل الأعمال واخطرها ، ومن حق المصلحة الاجتماعية العامة فيهم ، ما يجعله يحتصم بعناية منه ، وما يجعله أشد الناس تشجيعاً لهم وعظماً عليهم . والتشجيع : هو العامل الحي ، الذي به تنفجر النفوس عن عبقرية كينة تعالج في القلوب ، وهو ذاك الذي يقتدح الاستعداد ، ويؤثر^(١) التفاعل الحيوي في النفوس المستكنة الضعيفة ، فتتضح القدرة بعد اليأس منها ، وتقضي بالخير بعد ظن الاخفاق ، وما خرج القادة والعلماء والقضاة وقد اوفوا على الباية ، واشف من العاية ، الا عناية الرسول وتشجيعه ، ولولا هذه العناية وهذا التشجيع ، فقد يمكن ان يكون هناك نبوة ودين ، ولكن المستحيل عادة ان يكون هناك نهضة اسلامية كبرى تغفل في ادق ذرات العالم روحاً وعقلاً وضميراً ، ولقد كان لرسول الله في التشجيع اساليب ، هي آيات في إبداع التربية على احكم نظام ، وامتن طريقة ، وهي في ناحيتها القولية والعملية ، عملية بايعة الانتاج ، قوية ثابتة ، وما من عمل يذني ان يقوم به احد ، الا كان رسول الله يفتح طريقه اليه بالتشجيع ، ويذكيه بالعناية ، ومن اخص هذه الاعمال الحرب والعلم والقضاء ، اما تشجيعه عليه السلام

[١] التآريث في الاصل : ايقاد النار .

الشباب في الحرب ، فقد كان يرى فيهم من الاعتزاز بالنصر ، والنشوة في الفوز وثورة العقيدة ما حمله على الاستفادة منها فيما يجعاهم كتلة متماسكة ، من الجرأة والاقدام . فقد رفع من شأنهم ، وبسط من نفوذهم ، ووطد من دعائمهم ، ما آتاح لهم ان يخوضوا اكبر المعارك ، وهم في الرعيل^(١) الاول ؛ لا بل ان يفوزوا بالقيادة في كثير من السرايا والغزوات ، مقدمين على الجله من شيوخ الاصحاب ، فقد اعطاهم الرايات في اكثر المشاهد ، اعطى زيد بن ثابت راية بني النجار يوم تبوك ، وعمره نحو من عشرين سنة ، بعد ان سلبها من عمارة بن حزم ، واعطى علياً راية بدر ، وهو بين احدى وعشرين واثنتين وعشرين سنة ، حتى اذا كانت غزوة خيبر ، قال رسول الله في الملاء : لا أعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، قال سعد فبات الناس يدوكون^(٢) ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فقال : ابن علي بن أبي طالب ؛ فقالوا يا رسول الله يشتكي عينه ، قال فارسلوا اليه ، وفي رواية ، بعث رسول الله (ص) ابا بكر برايته الى حصون خيبر يقاتل ، فرجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث عمر الغد ، فقاتل فرجع ؛ ولم يكن فتح ، وقد جهد فقال رسول الله (ص)

[١] هو في الاصل : مقدمة الجيش [٢] دأك القوم : وقعوا في اختلاط

لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ليس
بفرار ، قال سلمة : فدعا بعلی وهو أرمـد ، فقتل في عينيه ، وقال هذه الراية
امض بها ، حتي يفتح الله على يدك ، فأية أريحية تلك التي يهتز لها ، حين
يعلم قبل ان يلج غمـسار الحرب انه كان بموضع من ثناء النبي ، وثقته في
إحراز الفتح ، والغلبة على العدو ، وهو لا يزال في شرح العمر (١) ؛ !
وما كان الرسول لياأبى في سبيل التشجيع ، وزرع الثقة في النفس ، أن
يعطى الراية غلاماً لم يتجاوز سنه العشرين ، بل أقل من ذلك ، فقد أعطى
أسامة بن زيد راية السرية التي جـهـزها لتغير على أنى من قضاة ، تلك
السرية التي ضمت اربعين الف مقاتل ، فيهم سـراة الناس والمقدمون فيهم ،
من المهاجرين والانصار ، مثل ابي بكر وعمر وابي عبيدة ، وقال حين بلغه
ان الراية صارت الى خالد بن الوليد ، البطل الصنديد ، قال : فهلا الى رجل
قتل ابوه يعني أسامة بن زيد ، حتى اذا طعن بإمارته بعض الناس ، تنى (٢)
واعلى المنبر ، فقال « فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة ، إن
طعنتم تأمير أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وايم الله إن
كان لخليقاً بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بها ، وانه كان لمن احب

[١] اي اول الشباب [٢] اي غضب

الناس اليّ، وانه لمظنة لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فانه من خياركم،»
وهذه امثلة قليلة لا يبلغ الاستقصاء الا حاطة بجميعها .

واما تشجيعه عليه السلام الشباب في العلم ، فقد كان يعلم ان الشباب
أقوى على حمله وأضمن للالتاج فيه ، فهم الذين عقولاً وأصني قرائح ، لذلك
فتح لهم باب العلم على مصراعيه ، ويسر لهم اليه السبيل ، وأباح لهم في
تلقفه ما لم يكن ليبيحه لغيرهم ، فقد أباح لعبدالله بن عمرو بن العاص ، ان
يكتب عنه ما يسمعه منه ، بعد ان حظّر كتابة الحديث على كل احد ، خشية
ان يُلبسوه بالقرآن او ان يمزجوه به . قال عبدالله بن عمرو : استأذنت
النبي (ص) في كتابة ما سمعت منه ، فأذن لي فكتبت ، فكان عبدالله يسمي
صحيفته تلك الصادقة ، وقد جاب ابو هريرة لما سئل عن احفظ الاصحاب
للحديث ، فقال : انا ، لولا عبدالله بن عمرو ، فانه كان يكتب . وقد يستجلب
شغفهم . ويعتصر رغبتهم من طرف خفي ، حتى في توجيههم الى نوع
مخصوص من العلم ، فقد جلب عبدالله بن عباس ووجهه بدعائه له ، قائلاً :
اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب ، وقوله : اللهم فقهه في الدين ، وعلمه
التأويل ، فكان كما أراد له الرسول ، فقيهاً في الدين ، عالماً بالتأويل ،
حكيماً ، وقد قص عبدالله بن عمرو رؤياه على النبي فقال : رأيت فيما يرى

النائم كان في إحدى اصبعي سمنًا ، وفي الأخرى عسلا ، وانا ألعقهما . فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله (ص) فقال . تقرأ الكتابين التوراة والفرقان ، فكان كذلك متقنًا للكتابين التوراة والفرقان ، ومن عظيم تشجيعه الشباب في العلم ، أن جعل من الشباب كُتَّاب وحيه ، وكتب رسائله ، فقد كان منهم زيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ولقد حض بعضهم على تعلم اللغات الأجنبية التي كان عليه السلام في حاجة ماسة إليها ، كالسريانية والعبرانية ، وذلك هو زيد بن ثابت ، ليقوم بأمانة السفارة فيما بينه وبين اليهود . ومن تشجيعه العملي في العلم ، الاذن للشباب بالفتيا في عهده ، وفي بلده ، فمن اولئك علي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل . وما كان اكثر ما جهر بمدحهم في العلم تشجيعًا لهم ، كقوله : أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وسيأتي بعض ذلك .

واما تشجيعه عليه السلام الشباب في القضاء ، فقد علم عن الشباب الذين ابتعثهم من ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، وبديهة الحجة ، ما دفعه الى ان يجتبيهم^(١) لتولية القضاء ، من دون غيرهم ، من شيوخ الاصحاب ،

[١] اي مختارهم

حتى أصبحوا فيما بعد قضاة الدنيا ، فعن علي بن ابي طالب قال : بعثني رسول الله (ص) الى اليمن قاضياً ، فقلت : يا رسول الله ، ترساني وانا حديث السن ، ولا علم لي بالقضاء ؟ فقال : ان الله يهدي قلبك ويثبت لسانك ، فاذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول ، فانه احرى ان يتبين لك القضاء ، قال فما زلت قاضياً ، وما شككت في قضاء بعده هذا . وعن معاذ قال : لما بعثني رسول الله (ص) الى اليمن قال : بم تقضي ان عرض لك قضاء ؟ قال : قلت أقضي بما في كتاب الله ، قال : فان لم يكن في كتاب الله ، قلت : أقضي بما قضى به رسول الله ، قال : فان لم يكن فيما قضى به رسول الله ؟ قال : قلت اجتهد رأيي ولا آلو^(١) ، قال : فضرب صدري ، وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ، وبعث النبي الى اهل اليمن كتابا بشأن معاذ قائلاً فيه : اني قد بعثت عليكم من خير اهلي ، والي امامهم والي دينهم . قيل ليحيى بن اكرم لما ولي القضاء وهو ابن احدى وعشرين سنة ، كم سن القاضي ؟ قال : مثل عتاب بن أسيد حين ولاه النبي اماراة مكة وقضاءها يوم الفتح ، وانا اكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله قاضياً على اليمن .

[١] اي لا اقصر

لطف بالشباب وصبر لهم وضوف عليهم وأدبرهم :

ليس هناك شيء أملك لنفوس الشباب ولا أقوى جذباً لهمهم ، ولا أورى لنادهم ، من اللطف بهم والعطف عليهم ، ولقد كان الشباب من الأصحاب ، يدعون آباءهم وأمهاتهم ، ويتخذون من النبي الكريم صلوات الله عليه أباً وأماً ومعلماً ونبيّاً ، يكفون عليه ، ويفدون به بانفسهم وآبائهم وأمهاتهم . ليس الا لأنه يتخذ من هذه النفوس اللدنة^(١) ، وهذه المشاعر الحادة ؛ ذريعة^(٢) لطيفها على أنبل العواطف وأحصف العقول . فعن معاذ قال : « أخذ رسول الله (ص) يوماً بيدي ثم قال : يا معاذ ، والله اني أحبك ، فقال له معاذ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وأنا والله أحبك ، فقال : اوصيك يا معاذ ، لا تدعن في دبر كل صلاة ان تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

ولما أراد ان يبعثه الى اليمن قاضياً ، ركب معاذ ، ورسول الله يمشي الى جانبه يوصيه ، فقال يا معاذ : «أوصيك وصية الاخ الشفيق ، اوصيك بتقوى الله ، وعد المريض ، وأسرع في حوائج الأراامل والضعفاء ، وجالس الفقراء والمساكين ، وأنصف من نفسك ، وقل الحق ، ولا

[١] أي اللينة [٢] أي وسيلة

تأخذك في الله لومة لائم ، فأني أثر أحدثت هذه الوصية في قلب معاذ ،
بعد أن لابسها من لطفه عليه السلام وعطفه ، ما جعله يشغف حباً بالنبى ،
ويصبح شعلة من الايمان والعلم والحرية والضمير . وكثيراً ما يبسط لهم
من أنسه فيسألهم ، يجمع لهم بذلك بين التعليم والمباشطة والاختبار ،
دخل معاذ على رسول الله (ص) فقال : كيف أصبحت يا معاذ ، قال
أصبحت مؤمناً بالله تعالى ، قال : إن لكل قول مصداقاً ، ولكل حق
حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ قال يا نبي الله : ما أصبحت صباحاً قط الا
ظننت اني لا أمسي ، وما أمسيت مساء قط الا ظننت اني لا أصبح ،
ولا خطوت خطوة الا ظننت اني لا اتبعها أخرى ، وكأني انظر الى كل
أمة جاثية تدعى الى كتابها ، معها نبيا ، واثانها التي كانت تعبد من
دون الله ، وكأني انظر الى عقوبة اهل النار ، وثواب اهل الجنة . قال :
عرفت فالزم . ولقد اورثهم ذلك حرية في التفكير ، وجراًة
في الاستفادة ، وصداً بما يروونه الحق ، لا يُحجمون ولا يُراعون ،
وانتهى بهم الامر الى ان يسألوا النبي حتى عن الشرور وتفصيلها ، بل
كانوا يحبون ان يستطلعوا الاشرار من الناس ، ولو كان النبي لا يرى
الجهر بسوءات الرجال . قال معاذ تصديت لرسول الله (ص) وهويطوف ،

فقلت يا رسول الله ، أرنا شر الناس ، فقال سلوا عن الخير ، ولا تسألوا
 عن الشر ، شرار الناس شرار العلماء في الناس ، نعم ! لقد كان ينفق في
 سبيلهم جهده وعنايته ، فيجيبهم اذا سألوه ، ويستمع اليهم اذا حدثوه ،
 ويعلي شأنهم اذا فازوا بحق او صواب ، ويقف دون شططهم اذا دفعهم
 دم الشباب الى ذلك ، ولو كان بسبيل من طاعة او تقوى ، لئلا يضرُوا
 بأنفسهم فيمسخهم السوء ، فان للشباب شرةً ونزوة ، فان هو اعطاها
 الديان ، وارخى لهما العنان ، فقد ينشقان من عمره ومن جلده ، ما يعجل
 له القضاء ، فيكون كالمذنب ، لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقي ، قال النبي
 عليه السلام ، لعبد الله بن عمرو بن العاص : « ألم أخبر انك تقوم الليل وتصوم
 النهار ، فقلت إني افعل ذلك ، فقال : إنك إن فعلت ذلك ، هجمت ^(١)
 عيناك ونفبت ^(٢) نفسك ، إن لعينيك حقاً ، ولأهلك حقاً ، ولنفسك
 حقاً فقم ونم ، وصم وأفطر » ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص :
 جمعت القرآن فقرأته في ليلة ، فقال رسول الله : إني أخشى ان يطول
 عليك الزمان ، وان تمل قراءته ، ثم قال اقرأه في شهر ، قلت يا رسول
 الله : دعني استمتع من قوتي ومن شبابي ، قال اقرأه في سبع ، قلت

[١] اي غارت [٢] اي عيت

يا رسول الله : دعني استمتع من قوتي ومن شبابي ، فأني ، وقد اهتم
 النبي بالشباب وحفظ لهم اقدارهم ، حتى كانوا عنده موضع شفاعاة الناس ،
 ووسيلتهم اليه ، حتى آثرهم القوم في الشفاعاة على غيرهم ، ما لم تكن الشفاعاة
 في حد من حدود الله ، فما كان ليقبل فيه شفاعاة الشافعين ، ولا وسيلة
 المقرنين ، ففي طبقات ابن سعد : كان أسامة يأتي النبي في الشيء فيشفعه
 فيه فأثاه مرة في حد ، فقال : يا أسامة لا تشفع في حد ، وعن عائشة :
 ان قریشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله
 (ص)؟ فقالوا : ومن يجترى عليه الا أسامة بن زيد ، حب رسول الله (ص)
 فكلمه أسامة ، فقال رسول الله (ص) ، لم تشفع في حد من حدود الله ؟
 ثم قام النبي (ص) فاخطب فقال : انما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم اذا
 سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ،
 وإيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . كل ذلك قد
 كان ، لطف ووداعة ورفق واحترام ، وإيثار وترغيب ، وثقيف
 وتشجيع ، يهذب بذلك من طباعهم ، ويقوم من أخلاقهم ويشرح
 صدورهم ، وينعش أفئدتهم ، حتى اذا بدرت من احدثهم خطيئة عاجلها
 بالحكمة والموعظة معالجة المعى ^(١) محنك ^(٢) ، عن الحضرمي قال :

[١] الذكي [٢] المجرب

بلغني أن رسول الله (ص)، بعث أسامة بن زيد وكان يحبه ويحب إياه قبله، بعثه على جيش، وكان ذلك من أول ما جرب أسامة في قتال، وعمره نحو من ثماني عشرة سنة، فلقني فقاتل فذكر منه بأس، (١) قال أسامة، فأتيت النبي (ص)، وقد أتاه البشير بالفتح، فإذا هو متهلل وجهه، فأدناي منه ثم قال: حدثني، فجعلت أحدثه، فقلت فلما انهزم القوم، أدركت رجلاً وأهويت إليه بالرمح، فقال الرجل لا إله إلا الله، فطعنته فقتلته. فتغير وجه رسول الله (ص)، وقال: ويحك يا أسامة فكيف لك بلا إله إلا الله فلم يزل يرددناها علي، حتى وددت أني انسلخت من كل عمل عملته، واستقبلت الإسلام جديداً فلا والله لا أقاتل أحداً قال لا إله إلا الله بعد ما سمعت من رسول الله، فهذه المعاملة بضروبها من ترغيب وترهيب، هي التي انجبت وأخرجت من هؤلاء الشباب عظماء الدنيا وساداتها وقاداتها كما أبرزت منهم أنصع صفحات الإيمان والشجاعة والخلق.

إيمانه السباب وبغيرهم

حين تلفظ الحياة سماءها^(٢) وتنضح^(٣) من طبائعها فتستشري^(٤)

[١] أي قوة وشدة [٢] جمع سموم : وهي الريح الحارة والمعنى مجازي .

[٣] أي ترشح [٤] تشتد وتتفاقم .

بعنت ^(١) الزمن ، وتنزى ^(٢) بموَبقات ^(٣) المادة ، ولا تؤمن الا بالقوة ،
ولا تستسلم الا لموجبات حيوانية ، فما على الناس - والأمر كذلك -
الا أن يهرعوا من حمارة هذه الهاجرة ^(٤) التي تنذر بالثبور ^(٥) ،
فيتفيئوا ^(٦) النعمة الوارفة في قرارة الأمن والسعادة من جنة الإيمان ،
فلولا الإيمان الذي كان مفرع الأئمة في الغابر والحاضر ، ومثوى ^(٧)
أفئدتها حين يعصف بها إعصار ^(٨) الويلات والمحن ، وتدكها زلازل
النوازل ، لولا الإيمان ، لخلت الحياة من كل معنى إلا آليتها التي
تجري مطردة ، تحسن مرة وتسيء مرات ، وترضي حيناً ، وتسخط
أحياناً ، بل لولا الإيمان لما كان لإحسانها وإساءتها ولا إرضائها
وإسخطائها قيمة ولا وزن ، فاذا آمن الانسان فرجت له مشاكل
الحياة ، وانخلت له عقدة الموت ، وفرح بعقيدة الخلود ، وثاب ^(٩)
الى الطمأنينة وراحة الأبد . وما كان الإيمان يوماً ملكئاً عن
عن التقدم إلا اذا أساء أهله استعماله ، بل الإيمان داعية ملحة الى
العمل والتسابق في ميادين النهضة ، إرضاء لله فيما ينفع الفرد

[١] العنت: المشقة [٢] تنزى الى الشر: تتوئب وتسرع [٣] بآثامها [٤] اي شدة

الحر والمعنى مجازي [٥] الهلاك [٦] تقياً: تتبع الظل [٧] اي ملجأ [٨] ريح
شديدة ترفع التراب من الارض بشكل مأمور [٩] اي رجع

وينفع المجموع ، ويقضي على فردية غاشمة تعبت بمصلحة عامة ، كما يقضي على إجماع يعبت بمصلحة الفرد. هذا هو الايمان الذي أثبت القدرة الهائلة في تهذيب البشرية وتقويم طبائعها ، يوم أن نقل العرب من حال لا يحد تأخرها وصف ، الى حال بلغت من الكمال حدًا لم تبلغه أمة ، أيام النبي محمد ومعه أصحابه الذين بلغوا أعلى الدرجات في الايمان والثبات عليه واليقين به ، ولولا هذا الثبات وهذا اليقين من هذه الفئة السابقة لما كان من الجائر أن تبرز وشيكاً دعوة الرسول ، وتمتد بهذه السرعة الى الآفاق ، وليس من بدع الامر أن تكون هذه الفئة السابقة الى الاسلام والمؤمنة به هي من الشباب ، لأنه مامن نهضة تحمل طبائع التجديد ، ولا ثورة تريد أن تصطلم^(١) التقاليد ، ولا انقلاب يطغى على موارد قومية ، ولا اصلاح يفصل من أضرار^(٢) التعفن النفسي ، إلا واستبق اليه الأحداث قبل غيرهم ، وأضرموه بنشاطهم وهمهم ، وتقاتلوا في سبيله ، فهم أنضر عاطفةً ، وألين قلوباً ، وأدنى الى الفطرة ، وأنأى عن التعقيد ، فقد كانت تصادف منهم الدعوة قلوباً حيةً خالية من الشوائب ، فيستجيبون اليها مسرعين ، وينتحلونها مخلصين ، ولما برز النبي بالرسالة ، لم يلف

[١] اي تستأصل [٢] جمع وضر : وهو الوسخ

بين يديه من يثق به ، ويعتمد عليه ، بعد زوجه أم المؤمنين خديجة ،
 إلا علي بن أبي طالب ، ذلك الفتى الذي وجد النبي من قلبه
 الكبير ، ونفسه الطيبة ، وطويته المأمونة ، اعظم مثال للرجل
 يتفانى في عقيدة ، ويُرخّص في سبيلها نفسه وماله . ومن السابقين
 الأولين : زيد بن جارية ، وطلحة ، وسعد أبي وقاص ، والزبير بن
 العوام ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وكلهم كانوا في قسوة
 السن ، حتى إذا بلغوا تسعة وثلاثين رجلاً ، كثرتهم الساحقة من
 الشباب ، أذن الله للشباب الميم^(١)شم^(١) الجلد من الفتيان عمر بن الخطاب
 أن يُسلم ، فأعلنه على ملائمة من الناس ، صادعاً بالحق ، منافعاً عن
 الدعوة ، حامياً لها ، وإذا قلنا السابقين الأولين ، فإنما نعني أولئك الذين
 صبروا في البأساء والضراء وحين البأس ، فلقد كان ينتابهم من فوادم^(٢)
 الحوادث ، بما لا يقوى على حملها هذا الجسم البشري ، بالغاً ما بلغ
 من الثبات والقوة ، ويكفي أن نذكر حادثة الشعب الذي لبثوا فيه
 ثلاث سنوات ، حرموا فيها الطعام والشراب ، حتى قال سعد ،
 وكان عمره في هذه الحادثة نحواً من ست عشرة عاماً ، «لقد رأيتنا مع

[١] الشجاع الذي لا يثنيه شيء عما يريد [٢] جمع فادح : وهو الشديد الثقيل

[٢] ما انفرج بين جبليين

رسول الله ، وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى يضع أحدنا كما
تضع الشاة » وكم نالهم من الاءذى حين عزموا على هجرتي الحبشة
والمدينة ، وكتب السير مستقيضة من هذا ، كل ذلك في سبيل
إيمانهم ، وفي سبيل ثباتهم على دعوتهم ، فلا يجبنون ، ولا يرهبون ،
ولا يبالون ، ماداموا يؤمنون ، فلقد كان عم الزين (وعمر زير نحو
من عمر سعد) يعلقه في حصير ويدخن عليه بالنار ، وهو يقول :
ارجع الى الكفر ، فيقول الزير : لا اكفر أبداً ، ولما أسلم عبد الله
بن سهيل بن عمر ، رجع الى مكة ، فأخذه ابوه فأوثقه عنده ، وقتله في
دينه ، فلما كان يوم بدر ، خرج عبد الله بن سهيل الى نفي بدر
مع المشركين ، وهو مع أبيه سهيل بن عمرو في نفقته وفي حملانه ،
ولا يشك ابوه أنه قد رجع الى دينه ، فلما التقى المسلمون والمشركون
ببدر ، وتراءى الجمعان ، انحاز عبد الله بن سهيل الى المسلمين ، حتى
جاء رسول الله (ص) قبل القتال فشهد بدرًا مسلماً ، فغاض ذلك
اباه غيظاً شديداً ، ومن هذا كثير ذائع ، ولئن أصابهم من ذلك
ما أصابهم ، لقد تغزوا عن ذلك بتغذية روحهم ، ودعم يقينهم ،
وصدقهم بحراسة مبدأ دعوتهم ، حتى فيما نالوا من صنوف الايذاء
وألوان العذاب .

مهارة الشباب وشجعانهم

الجهاد في الإسلام فرع من فروع الإيمان ، والشجاعة من تاج العقيدة ، فإذا اتقنت في النفس جذوة الإيمان ، وفار فيها صرّج العقيدة ، كان منها أبلغ ما ينتهي إليه البشر ، من الأيد^(١) والبسالة^(٢) والاعتماد ، وغزوة بدر مع قريش ، وغزوة مؤتة مع الروم وواقعة القادسية مع الفرس برهان على ذلك ، وليس من التحيز أن نعترف ، أن للشباب في ميدان الجهاد والمفاواة أكبر نصيب في الحروب التي دارت رحاها في زمن النبي (ص) وهماي أكثر الغزوات والسرايا وأكبرها يفصحان عن ذلك فأما غزوة بدر ، وهي أعظم غزوة تم فيها الانتصار للمسلمين على قلة العدد والعدد وكان لهم بها الفتح المبين — فقد كان حامل الراية فيها عليّ ابن أبي طالب شاباً في الحادية والعشرين من عمره ، وفارس الميمنة الزبير بن العوام شاباً في نحو عمر عليّ . والذين كانوا يتجسسون أنباء العدو ويتسقطون^(٣) خبرهم شبان أيضاً . ولما بدأت المبارزة كان الشباب يتسابقون إليها قبل غيرهم ، ففي حديث بدر : لما برز عتبة

[١] الأيد : القوة [٢] البسالة : الشجاعة [٣] تسقط الخبر : اخذه

شيئاً بعد شيء

وشيبة والوليد، برز اليهم شببة من الانصار، ثم لما التحم القتال، وحمي الوطيس، كان الشباب اشد الرجال بلاءً، وأثبتهم رجلاً وأصبرهم على مكروه؛ فهاهو علي ماقام اليه فارس إلا أقعده، حتى أُحصي من من صرعه ما لم يحص لغيره كثرةً، وهاهو الزبير قاتل في ذلك اليوم قتالاً شديداً، حتى كان الرجل يُدخل يده في الجراح في ظهره وعاتقه، وأما غزوة أحد فهي الغزوة التي أثارها الشباب وحدهم، حتى قال في ذلك بعض المنافقين في كلمة حق: قتيان أحداث لم يشهدوا بدرأً، فطلبوا من رسول الله الخروج إلى - وهم، ورغبوا في الشهادة، هذا ما قاله، ولئن خسرها المسلمون، ما خسروها لأنهم ليسوا أكفاء لخوضها، أو لأن الرأي فيها لم ينب، فقد انتصروا أنجز انتصار في البدء على عدوهم، وغلبوهم على أمرهم، فلما طمعوا في متاع الدنيا، وأغفلوا أمر النبي، ضرب عليهم الخذلان، ومُنوا بالهزيمة، على أن هذه الغزوة كان فيها فضل الكشف عن أقدار الرجال وامتحان قلوبهم، في حالي النصر والهزيمة، فكان الشباب فيها صبراً على عند اللقاء، صبراً عند البلاء، أما أنهم صبر عند اللقاء فقد كانوا أول من خذل طليعة البارزين من المشركين، فقد صاح طلحة بن أبي

طلحة ، صاحب لواء المشركين من يبارز ؟ فبرز له علي ، فقتله ، ثم حمل اللواء عثمان بن ابي طلحة ، فقتله حمزة ، فحملة رجل ، فرماه سعد فقتله ، فحملة مسافع ، فرماه عاصم بن ثابت ، ثم حملة كلاب ، فقتله الزبير بن العوام ، ثم حملة الجلاس بن طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله ، ثم حملة أرطاة بن شراحيل ، فقتله علي بن ابي طالب ، فها نحن نرى ان هؤلاء الذين نازلوا العدو فقتلوه كانوا شباناً ليس فيهم إلا حمزة بن عبد المطلب . واما أنهم صبر عند البلاء فقد كان رسول الله يقول : ما صبر معي يوم أحد غير طلحة ، لقد كان يقيني النبل بكفيه ، وقال طلحة : لما كان يوم أحد حملت النبي (ص) على عنقي حتى وضعتني على الصخرة فاستتر بها عن المشركين ، وما انصرف الرسوم يوم أحد حتى قال لحسان قل في طلحة فقال :

وطلحة يوم الشعب آسى محمداً على ساعة ضاقت عاياه وشقت
يقيه بكفيه الرماح وأسامت أشاجعه تحت السيوف فشلت
وكان إمام الناس إلا محمداً أقام رحي الإسلام حتى استقلت

ثم أتى سعد فأخذ ينضح بالنبل عن النبي وهو يقول له : ارم سعد فذاك ابي وأمي ، ارم ايها الغلام الحزور ، اي المقارب للبلوغ ،

وما من غزوة أو سرية إلا وكان للشباب فيها القدح المعلى^(١)، ولو رحنا نستقصي بذلك أخبارهم، لمألنا بذلك أوراقاً كثيرة، وحسبنا أن أكثر حملة الألوية منهم، وأن نجد أكثر من كانوا يكتفون النبي في كل ما يدل على مصاولة أو جهاد منهم أيضاً، فقد حرس النبي ليلة بدر أبو قتادة، وسنه نحو من إحدى وعشرين سنة، حتى دعا له فقال: اللهم لحفظ أبا قتادة، كما حفظ نبيك هذه الليلة، وهو الذي كان يقال له فارس رسول الله، وكان قيس بن سعد بن عبادة من النبي بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، قال أبو عمر: كان يعني قيساً أحد الفضلاء الجلة من دهاة العرب، من أهل الرأي والمكيدة في الحرب، مع النجدة والسخاء والشجاعة، وكان شريف قومه غير مدافع، وعن عبد الله بن الزبير، أن النبي قال يوم الخندق، هل من رجل يذهب فيأتينا بخبر القوم؟ فركب الزبير، فجاء بخبرهم من بين الناس كلهم، فعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فلما ركب الزبير في آخر مرة، قال رسول الله لكل بني حواري، وحواري الزبير، وعن ابن عباس: أن رجلاً شتم النبي، فقال عليه السلام: من يكفيني عدوي؟ فقام الزبير، فقال أنا فبارزه، فقتله.

[١] أي الحظ الأوفر وأصله: اسم لأعظم سهام الميسر حظاً.

علم السباب

يزدوج في الشريعة الاسلاميه العلم والدين ازدواجاً لم يكن ليظهر له من أثر في الأديان قبل ، وإذا قلنا العلم فانما نعنيه بالمعنيين جميعاً ، التثبت على ضوء الضروريات والقطعيات ، ويشير اليه قوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن » والثاني ، العلم بفروع الدين وأصوله ، وبما لا يمكن أن تتم إلا به وهذا يرجع إلى كل ما في القرآن والسنة من تشريع ، وكلام العلماء كان له أكبر الأثر في عقول الصحابة أما الأول فحسبه أن يكون له من الأثر في تفكيرهم ، ما طهر منهم وراثات وتقاليد وأساطير ، وما غرس فيهم جديداً عن طريق قوله تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات وفي الأرض » وقوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » إلى كثير من هذه الآيات .

وأما الثاني ، وهو العلم بروح التشريع ، وأصوله وفروعه ، فهذا ما لا يجوز أن يكون للصحابة منه إلا الإحاطة والرسوم ، أو ليس الله قد قال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، أو ليسو هم أحق الناس

بخشية الله، وأولاهم بطاعته وتقواه، لئلا يفهم العلماء حقاً، الذين فهموا
 الدين كما يجب أن يفهم، ووضعوا نواة العلوم الشرعية لمن بعدهم. والذي
 يجلب النظر أن يكون الشباب في زمن النبي هم أسبق الصحابة لحل هذه
 الراية العظمى، راية العلم، ولوجئنا نستقصي أعلى الطبقة الأولى والمعلمها
 من علماء الصحابة، لألفيناهم شباباً، منهم علي بن أبي طالب، وابن عباس
 وابن عمر، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن مسعود
 وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عمرو، وسعد بن أبي
 وقاص، وأنس بن مالك. فمنهم جامعوا القرآن. وهم زيد بن ثابت، وابن
 عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ومنهم الذين عُنيوا بالفتيا، وكانت
 الطبقة الأولى منهم، فقد صنفهم ابن حزم قائلاً: أكثر الصحابة فتوى
 مطلقاً ستة، عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وزيد
 ابن ثابت، وعائشة. قال: ويمكن الجمع من فتوى كل واحد من هؤلاء
 مجلد ضخمة، ومنهم من برع بالتأويل، وأسباب التنزيل، وأشهرهم علي،
 وابن عباس، ومنهم من أجاد الفرائض والحساب وبعض اللغات، وهو
 زيد بن ثابت، الذي قال في حقه النبي عليه السلام أقرضكم زيد، ومجمل
 القول، أن هؤلاء القوم هم الذين قاموا بالحركة العلمية الشرعية في جميع

صنوفها في عهد النبي عليه السلام وهم الذين تولوا نشرها في الآفاق ، في مكة والمدينة واليمن والكوفة والبصرة ، وليس بالقليل أن نتحدث بعض الحديث عن بعض العلماء من شباب الصحابة، فلنوجز القول، ولنحدث عن شابين في الذروة من علماء الصحابة ، هما: عبد الله بن عباس ، ومعاذ بن جبل ، ويكفي أن تأتي بشهادة بعض الصحابة والتابعين فيهما. فأما عبد الله بن عباس فقد شهر بين الصحابة والتابعين بالبحر، حتى كان عطاء يقول: قال البحر، وفعل البحر، وكان عمدتهم في كل ما يتصل بالعلم والدين، فعن ليث بن أبي سليم، قال قلت لطاوس: لزممت هذا الغلام، يعني ابن عباس، وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله فقال: لاني رأيت سبعين من أصحاب رسول الله. إذا تدارعوا في شيء. صاروا إلى قول ابن عباس. وعن الحسن، قال: أول من عرف بالبصرة عبد الله بن عباس، قال: وكان مبحثاً كثير العلم، قال فقرأ سورة البقرة، ففسرها آية آية. وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص، قال سمعت أبي يقول: ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا ألب لباً، ولا أكثر علماً ولا أوسع حلاً، من ابن عباس. ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعو للمعضلات، ثم يقول عنك! قد جاءتك معضله، ثم لا يجاوز قوله: وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار. وقال عمر لما سئل أن

يدعو أبناء المهاجرين كما يدعو ابن عباس فقال : ذاكم فتى الكهول ، له
لسان سؤول ، وقاب عقول ، وقال علي فيه أيضاً : لانا لتنظر إلى الغيث
من ستر رقيق لعقله وفطنته ، إلى أن قال : ولنعم ترجمان القرآن عبد الله
وكان ابن عمر يقول : أعلمنا ابن عباس وعن الأعمش : خطب ابن عباس وهو على
الموسم فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول : ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله لو
سمعتة فارس والروم لأسمعت . وأحسن ما نَحْتَم القول فيه ما قاله عبيد الله بن عبد الله
ابن عتبة حين قال : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال يعلم ما سبقه ،
وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم وسيب ونائل ، وما رأيت أحداً
كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله (ص) منه ، ولا أعلم بقضاء أبي
بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي منه ، ولا أعلم بشعر ولا عريّة
ولا بتفسير القرآن ، ولا بحساب ولا بفريضة منه ، ولا أعلم بما مضى ،
ولا أتقف رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه
إلا الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً المغازي ، ويوماً الشعر ، ويوماً أيام
العرب ، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلاً
قط سألته إلا وجد عنده علماً . وأما معاذ بن جبل فذاك الذي ملأ اليمن
والمدينة من علمه ، حتى قال في حقه النبي عليه السلام أعلم أمتي بالحلل

والحرام معاذ . وعن أبي مسلم الخولاني قال : دخلت مسجد حمص فاذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي (ص) ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الشيا ، لا يتكلم ، فاذا امتري القوم في شيء ، أقبلوا عليه فسألوه ، فقلت لجليس لي من هذا ؟ فقال : معاذ بن جبل ، فوقع في نفسي حبه ، فكنت معهم حتى تفرقوا ، وقال ابن حوشب : كان أصحاب رسول الله إذا تحدثوا وفيهم معاذ ، نظروا إليه هيبة له ، وكان عمر يقول حين خرج معاذ إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة واهلها ، في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت ابا بكر أن يجلسه لحاجة الناس اليه فأبى علي وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجاسه ، فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته ، عظيم الغنى عن مصره . وخطب مرة عمر بالجالية فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، وقيل لعمر بن الخطاب لو عهدت إلينا فقال : لو أدركت معاذ بن جبل ، ثم وليته ، ثم قدمت على ربي عز وجل فقال لي : من وليت على أمة محمد (ص) ، قلت سمعت نبيك وعبدك (ص) ، يقول : معاذ بن جبل بين يدي العلماء طائفة يوم القيمة . وهذا أقل من

القليل في التحدث عن علماء الشباب ، ولو أردنا أن نعطيهم بعض حقهم من القول لوقفنا دون ذلك عاجزين .

أخلاق السباب

من العيب ان نريد التحدث بقليل من القول عن أخلاق هؤلاء الشباب ، لانه لم تنفرج الدنيا بعد عن أناس صلحوا للحياتين على اكمل الوجوه كما صالح هؤلاء ، وما عرف عن أتباع نبي ولا حكيم كما عرف عن أتباع النبي محمد عليه السلام ، مناعة في الخلق ، وقوة في النفس ، وقدرة على ضبط الأهواء ، وهذا ملاك الأمر وعموده ، وما اعتقد أن من الخير لنا ان نستفيض بالبحث كثيراً عن أخلاقهم ومزايهم ، لانا بذلك نزرع منزعين مختلفين ، منزعاً يؤدي بنا إلى الرضا عن واقعٍ ذنيٍّ مبهرج ، تطيف به خيالات من عظمة الماضي وبطولةٍ ممثليه ، لا يغنيان عنا فيما نحن فيه من شيء إلا التواكل والخمول ، ومنزعاً آخر يدعونا إلى جبن وخور ، ينتهيان بنا إلى يأسٍ قاهرٍ مميت ، حين نحاول المقارنة بين أخلاقنا وأخلاقهم ، أوبالاصح بين أخلاق شبابنا وأخلاق شبابهم ، فترى تلك الشقة البعيدة والهوة السحيقة ؛ فأولئك قوم خرجوا من وادي الحجاز الجاف ، المنقطع عن الحياة والأحياء ، فبنوا أنعم

بناء في هيكل المدينة ، وشع منهم النور لى الآفاق كلها هادين مهدين
ثابتين قادرين ، ونحن قوم مقامنا عند مفترق الطرق من حضارات
الشرق والغرب ، وليس لنا من هذه الحضارات إلا سقطها^(١) وحثالتها^(٢)
عفواً ! ما ينبغي لنا ان نقارن بيننا وبينهم وقد كان الأمر كذلك ، وإنما
علينا ان ننش عن عيوبنا كلما سنع لنا ذلك ، ونجتهد في الطب لها ، لئلا
تدوى وتنفل^(٣) فتعسر علينا بعد ذلك مغبة^(٤) المرض ، وإذا سعينا في
إصلاح الشباب ، فأنما نسعى في اصلاح العنصر الحي القوي في الامة ،
فاذا كال هذا العنصر الحي ما يزال سادراً^(٥) في غلوائه ، مسترسلاً في
اهوائه ، غافلاً عن واجبه في إنعاش أمته ، يُغضي كما أغضت ، فتى اذن
ستكون نهضتها ، ومتى ستتل^(٦) من كبوتها .

يقولون : بأنا نحن الشرقيين عاطفيون خياليون راحيون ، فهل نحن
ياتري كما يقولون ؟ حبذا لو كان الأمر كذلك ، اذن لاستطعن أن
نجاري اعظم الأمم في رقيها وتقدمها ، بل لكنا في الطليعة من السابقين
الاولين . وبعد فما أحسب أنه يجوز أن تقوم حضارة ، وتهض أمة ،

[١] الرديء من كل شيء [٢] : بمعنى السقط [٣] تدوى : يزداد مرضها

[٤] عاقبته [٥] السادر : هو الذي لا يبالي ما يصنع [٦] تثل : تنهض .

ويستبق شعب ، إلا ويسوقه إلى ذلك قبل كل شيء خياله وعاطفته وروحه ، فالخيال يرسم المثل والأهداف ، والعاطفة تدفع إلى الجري ، والروح هو المحرك الأكبر ، أما وإنا لسنا من ذلك على شيء ، فنحن واقعيون بأبلغ ما في الكلمة من معنى ، واقعيون بأبشع صور الواقعية ، فبحسبنا أن نعيش ، وبحسبنا أن نأكل ونشرب وننعم بالميزات ، لنطمئن ونرضى ، وعلى الدنيا بعد ذلك العفاء ، وليس شبابنا وهم أجدر الناس بانفعالات القلب ، وخطرات النفس ، بأقل واقعية من غيرهم ، فلا مبادئ يحيونها ويستمسكون بها ، ولا أهداف يتأثرونها ، ولا أعمالاً خطيرة ينضوون تحت لوائه ، يسيطر عليهم الضعف النفسي ، وتملكهم ميوعة الأخلاق ، وهم بين أهواء تجتاح رجولتهم ، وتيارات مختلفة تتقاذفهم ، ومنازع تضرهم ولا يدرون ، أكبر ما يتجلى في أخلاقهم سرعة التقليد ، لا تقليد الحيوية والجد والنشاط في شباب الأمم ، بل تقليد الزخارف والمباهج ، شأن الأمم المستضعفة حين تظن أنها بذلك تسمى إلى الرقي .

فعيشوا أيها الشباب حقاً في جو من الخيال والعاطفة والطموح ،

فليست تطيب هذه الأرض بهذه الأدران^(١) المادية النفعية؛ عيشوا فيها،
ولا يفوتكم أن تملؤوها بالحب والخير والحق والشرف والمثل العليا ،
فلئن عجز وافئنا أن يستقل بالسمو في الروح والقداسة في الخلق والطهر
في الشرف ، لن يعجز جوكم الجميل أيها الشباب ، أن يحملها ويقدّر
لها قدرها ، واحذروا ملء نفوسكم ، أن تسطو على أفئدتكم حوادث
الحال وموجبات العيش إن كانت دنيئة ، فليس يفوز شعب تخذ شبابه
الواقع بعُجره وُبُجره^(٢) مثلاً يحتذونه ، فانهم إن فعلوا، أعادوا الحياة
السوآى مرات ومراتٍ ، على تقاب الأزمان وتعاقب الأجيال ،
واتباع السوء على العمى شر السوءين ؛ بل اعملوا ثابتين آمليين ، عازمين
على تقرير ما تستطيعون من شرف نفس عز في هذا العالم الأرضي ،
حتى ظن أن لم يبيض هذا اللحم والدم الذي هو الإنسان ، شيئاً مما
يسمونه في العالم النظري إنسانية وطهرًا وضميرًا ، ولا يجر منكم^(٣) هذا
الأمون المستعمر من الإجرام والذيلة والطفيلان المادي ، على أن تأسوا

[١] جمع درن : وهو الوسخ والمعنى مجازي . [٢] أي بظاهره وباطنه .

[٣] أي ولا يحملنكم .

وتجنبوا ، فإن دب إليكم شيء من ذلك ، فذرع القبر أرحب لكم من
فسحة الدهر ، فاطرحوا هذا التردد ، واستقبلوا الحياة بمجدكم ونشاطكم ،
واستمسكوا بسنة الدأب والثبات ، واشربوا نفوسكم القوة في الروح
والفكر والخلق ، إن كنتم تحبون أن تصبحوا بحق من شباب محمد^(١) .



[١] أقيمت هذه المحاضرة في المجمع العلمي العربي سنة ١٩٤٣ .

في ذكرى المولد^(١)

إذا فتح المرء سجل الانسانية ، من لدن إنسانها الأول حتى يومنا
هذا ، رأى فيه من العجائب والغرائب ما يُزيغ الأبصار ؛ أمم انبعثت
قوية ثم هلكت ، وحضارات صعدت شائخة ثم هبطت ، وعظماء
لمعوا ثم انطفأوا ؛ وطفاة سخرُوا من حياة الناس فسخر الموت منهم .
مال ونحل ، ومذاهب وآراء ، اضطرعت ، فأهاجت الثورات والحوادث
ودكت مدناً وأطاحت بمدنيات ، وقواد الانسانية من هذا كله إلا
قليلاً منهم ليسوا شيئاً آخر عن أتباعهم وأفراد شعوبهم ، وليسوا
أكبر منهم أو أعظم حظاً إلا بضخامة الألقاب ، وعظم الأحقاد ،
والغلو في حب الذات ، وإلّا بمواهب وعقول سخروها للابداع في
أساليب الكيد ، والتفنن في بث الحق الجماعي ، وزرع أنانية القوميات
ولقد طوى تاريخ البشرية معظم هؤلاء ، وطوى من آثارهم ، ولا يزال
يطوي منهم ، ولم يبق إلا ذكرهم بالخير أو بالشر ، وما خیرهم وما شرهم في

[١] القيت سنة ١٣٧٠ بمناسبة المولد في مسجد الأحمديّة .

نهر الحياة المندفق إلا زبد وغشاء يطفو حيناً ثم يذوب ويفنى .
ولولا أن في هذا السجل الانساني حياة محمد رسول الله ورسالته ،
لكان تاريخاً تافهاً ، ليس فيه إلا الأسود القاتم والباهت الفاتر ، فحياة
رسول الله ورسالته ، هما الجانب العبقري المضي حقاً في تاريخ
الانسانية ، وهما اللتان أثبتتا إمكان نزوع الانسان إلى الانسانية بأطهر
معانيها ، وأصنى غرائزها ، بعيداً عن حيوانية لا تعرف إلا وجه الشر
والمنكر والفساد ، وحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورسالته
هما أقصى ما تستطيع أن تنتج به الحياة من سمو والعظمة الروحية
والنفسية ، ومن العقل العملي الناجح الرائع ؛ ذلك أن محمداً رسول الله
لم يحي لشخصه المادي إلا بمقدار ما يقوى به على إبقاء بشرته ، وإعنا
حي رسالة ضخمة سامية ، ففي كل حركة من حركاته ، وكل سكونة
من سكنته ، وكل قولة من أقواله ، ما يصلح أن يكون ناموساً طيباً
رفيعاً لا أخلاق الانسان في أعدل الحدود الممكنة له .

كلا ، أيها السادة ، ما ندعي أننا نستطيع أن نقول شيئاً ولو قليلاً
عن نفسيته ، ولا ندعي أن في وسع أحدهما يؤت من البيان أن يفهما
بعض حقها ، وإذا حاولنا ذلك فهي محاولة من يصف سيفاً في غمده ،

كما أشار إلى ذلك صديقه أبو بكر رضي الله عنه بقوله ما عرفتم من رسول الله إلا كما يعرف السيف في غمده ، وحسبنا أن نعرف عنه أنه رسول الله ، وحسبنا أن نذكر أنه حمل للعالم رسالة أفل ما نقول فيها : إنها ما تزال الرسالة الخالدة ، وما تزال تقارع بقوتها وحيويتها تشاريع العالم جميعه ، على الرغم من أن التشاريع الكبرى في العالم ، نتاج لتجارب أمم في أزمان متطاولة ، التقت فيها عبقریات العلماء ، وإرشادات الحكماء ، وآراء الفلاسفة وأفهام الساسة .

أيها الناس ! ماغني قوم مثل ماغني المسلمون والعرب بحمد ورسالته ، وما ظفر شعب من شعوب الأرض بمثل ماظفر به العرب والمسلمون بحمد ورسالته ، ولو أنا عرفنا حقاً قيمة ما بيدنا لكننا اليوم في العالم قوة تحفظ له توازنه ، بل لكننا قوة ترد العالم عن طغيانه وبغيه ، إن الله سبحانه ما الصطفى محمداً برسالته في جزيرة العرب إلا لأن الجزيرة من العالم كقلب العقاب ، والشرق والغرب جناحاه ، فما كانت مهمته أن يهدي العرب وجدهم ، وإعنا أن يدعو العالم كله لدعوته ، أن يدعو العالم كله إلى السلام والسعادة والأمن والنجاة !

فكم يكون سؤالنا كبيراً عند الله يوم يسألنا ماذا صنعتكم برسالة

رسولي إليكم ؛ يوم يسألنا : لقد أتى على العالم حين كان في أشد الحاجة إلى رسالة محمد رسولي ، فهل قمتم بواجبكم وأديتم الأمانة ونصحتم الأمم ؟ فما أشد خجالتنا أن نكون نحن أتباع محمد رسول الله زاهدين في هذه الرسالة مع الزاهدين ، ومنكرين لها مع المنكرين .

أيها المسلمون وأيها العرب ! إن آفاقكم مؤلفة من البشر تهدر دماؤهم ضحية تجارب المبادئ ، فألى متى تستمر هذه التجارب ، وإلى متى يبني العظماء عظمتهم على جماجم الناس ؟ إن المسؤولية الكبرى تقع على المسلمين أنفسهم وإذا أنهم قصرُوا في الدعوة لها ، وما الدعوة لها في الحقيقة إلا أن نكون نحن برهانا عمليا أمام العالمين ، على أن رسالة محمد عليه السلام هي الرسالة التي تنقذ العالم من ويلاته ، وتخلصه من أهواله ، وعلى أن رسالته هي التي يلتقي عندها الشرق والغرب ، ويلتقي عندها اليمين واليسار ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » فإذا كان موطن رسالة محمد من العالم كالقلب ، فما أجدرنا نحن أن نكون في توزيع الانسانية والعدالة والرحمة ، وفي توزيع التشريع والتهذيب والارشاد على العالم كله ، كالقلب الحقيقي ، حين يوزع الدم والحياة في أعضاء الانسان كلها ، « ألا وإن في الجسد مضمة ، إذا

صلحت صاح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب . فالعرب من العالم قلب ، ولكن القلب فسد ، فلا بدع أن يفسد العالم كله .

آمنوا أيها المسلمون بالله ورسوله إيماناً كاملاً أولئك الذين جعل منهم إيمانهم أمة عجز العقل بعلمه وقوته وإرادته واكتشافه واختراعه عن أن يوجد مثلهم في كل شيء . إن المؤمنين من أسلافنا أمة مثالية واقعية لأعظم ما تحلم به البشرية من الأمثال العليا للإنسان الاجتماعي الكامل ، وإن الإيمان الحقيقي أذاب من نفوسهم كل الأعراض الفاسدة التي إن تحكمت أهلكت الحرث والنسل ؛ فحصدت نفوسهم وزكت قلوبهم ، فكانوا لذلك خير ما يفكر به العقل الحكيم . فأروني أيها العلماء والفلاسفة والمؤرخون أي عصر وأي علم وأي دين وأي مذهب وأي مكان وأيئة سياسة وأيئة ثورة وأيئة حرب استطاع أن يوجد أمة كالتي أوجدها محمد عليه الصلاة والسلام ، تندمج في العالم ، تعلم وتعمل ، وتشريع وتنظم ، وتفكر وتحارب ، وتناجر وتفقر وتغنى ، كل هذا بروح واحدة ونفس واحدة زكتها رسالة واحدة وتعهدها بالتربية رسول واحد صلوات الله وسلامه عليه .

هذه معجزة محمد، وهذه معجزة رسالته. إن تجربة واحدة لرسالة واحدة في التاريخ كله قد نجحت ، وقد أخفق كل ما سواها ، وما أريد التفصيل ، فلكم يستطيع ان يعلم ، ولكم يستطيع أن يوازن ، فلم يبق شيء من هذا في العالم مخبوء أو مجهول .

فقولوا أيها المسلمون بأفالكم لا بأقوالكم ، لا أولئك الذين ملأوا أوفنا برائحة البارود ، والذين يريدون أن يضرموا في الدنيا نار الحرب لينصر كل مبداء ، قولوا لهم : عندكم ! قد أخفقت تجاربكم . إن المبادئ التي تخفي في غضونها الثورة ، وتخفي الحرب والويل والدمار ، لبني الانسان ، مبادئ في غضونها الاخفاق الذريع ، وإت المبادئ التي تطوي في ثناياها الاستعلاء والاعتداء ، والتسلط على الضعيف ، والاستعمار بأفجع صورته وأوقعها وأقبحها ، وتطوي التحلل والحرية المطلقة ، لتلك مبادئ في ثناياها أيضاً الاخفاق المشين .

أيها المسلمون، ما يضعف الايمان في النفوس إلا فقدان الثقة بمجدواه، فتقوا ثقة لا يعتريها شك، برسالة نبيكم وشرعته، وآمنوا بإيمان الواثقين، ففي العالم اليوم ما ينبغي أن يزيدكم إيماناً برسالة نبيكم، وما يزيدكم بها ثقة واطمئناناً. دعونا اليوم من ثروة أولئك الذين لا يفتأون يزبنون لنا مناهج

الغرب في الحياة والاجتماع ، ويزينون لنا أخلاق الغرب ، فإن كانت
هذه المناهج وهذه الأخلاق ، قد عجزت جميعها عن أن توجد في
الغرب أمة مهذبة ، رفيعة الانسانية ، طيبة النفس ، زكية الشعور ،
وهي نتاجه وهو يثبتها ، فهي عن أن تصالحنا ، وتصنع منا أمة كما ينبغي
أعجز وأضعف ، فثقوا أيها المسلمون ، برسالة محمد صلى الله عليه وسلم
وآمنوا بها ، فإنها وحدها إذا فهمناها حق فهمها زعيمة أن تجعلنا أمة
يخضع لها الشرق والغرب ، بعد أن أصبحنا ذيولاً للشرق أو الغرب ،
ولتكن هذه الذكرى في كل سنة حافزاً لنا لتجديد المهمة وتجديد
الدعوة ، ومدعاة لتذكيرنا بديننا وبث الثقة به في نفوسنا ، ولتكن
هذه الذكرى مبادعة لنبيننا عليه الصلاة والسلام على أن نجدد بالله إيماننا
ونقويه ونثبته ، فإن ذكرى محمد عليه الصلاة والسلام خير ذكرى خير
نبي وخير رسالة خير رسول .

فصلى الله وسلم على سيدنا محمد صلاة تعرفنا قدره وتبعث في نفوسنا
إيماناً برسائله وهدية وشريعة .



منفذ المرأة^(١)

آسفاتي سيداتي :

ما أجمل أن يتنبه هذا المعهد الكريم إلى القيام ببعض واجبه في إحياء ذكرى النبي العربي محمد صلوات الله عليه في هذا الشهر المبارك ، كأنه في سعيه لإحياء هذه الذكرى العظيمة ، وفي الاحتفال بها ، يريد أن يرمز إلى سمو الفكرة التي من أجلها وفي ظلها فتتح هذا المعهد أبوابه يهذب التلميذات ويشققهن ويعلمهن .

كللا ! ما أردت بهذا القول إلى دعاية ، أو إذاعة محمّدة ، فإنا بسبيل ذلك ، ولكنني أحب أن أشير إلى أن من يثب إلى تفكيره إحياء ذكرى العظماء الانسانيين والمصلحين ، فهو الذي يريد أن يسلك طريقاً من الرشده والهدى والحق والخير ، فان منازع الانسان وميوله تظهر واضحة في اهتمامه بمن يوايهم عنايته ، ويصرف اليهم جهده ويتجه اليهم بروحه وعقله .

[١] أقيمت في معهد النجاح للبنات سنة ١٣٦٧ بمناسبة المولد .

على انه اذا حُقَّ للانسانية جميعها أن تحتفل بانسانها الحقوقي الاول
محمد بن عبد الله ، وحق للمسلمين جميعاً أن يحتفلوا برسولهم محمد بن
عبد الله ، وحق للعرب جميعاً أن يحتفلوا بذكرى تفوق العبقرية العربية
في محمد بن عبد الله، فما أحق المرأة في جميع العصور والبيئات أن تحتفل
بذكرى منقذها الاكبر محمد بن عبد الله (ص) .

أجل كان محمد رسول الله منقذ المرأة ، بل هو وحده منقذ المرأة
فمن كان يجهل ذلك فليعلم ، فما ألقى الكلام جزافاً ، وما أقصد به الى
التأثير الخطابي ، بل هي الحقيقة لا زخرف فيها ولا تزيين ، ولا مجاز
فيها ولا تخييل ، ومن كان في ريب من الأمر ، فليرسل فكره باحثاً
في لجج الماضي السحيق ، منذ العصور التي تسمى عصور التاريخ، حتى
مبعث النبي محمد (ص) ، ولينظر هل يستوقف فكره رسول او مصباح ،
فيلسوف او حكيم ، عالم او حاكم ، استطاع أحدهم أن يشرع للمرأة
تشريعاً نافذاً يحفظ به حقوقها ويصون كرامتها ، او استطاع — على
أقل تقدير — أن ينقذها من سُمّار العدو أن المحيط بها من الحكومة
والشعب ، او أن يمسخ بتلفه شقاوتها وبؤسها ؟

أيتها الأوانس والسيدات :

يعز علي - وانا احتفل بذكرى محمد منقذ المرأة - أن انمحر
الى هاوية من ظلمات التاريخ لا أستخرج امثلة من بأساء المرأة ، أو
حياتها المعبدة ، وكم كنت أؤثر ألا نسمي مني - في كلتي هذه -
الا الصفحة المشرقة من حياة أسلافكن ، ولكن اعذرني ، فأنتن
تعلمن الأقيمة للنور الا اذا اخترق احشاء الظلام ، وقديما كان
المتنبى يقول وبضددها تبين الاشياء فاذا كان لا يظهر نقاء البياض
الا السواد ولا النور الا الظلمات ، فسمحن لي ان اذكر لكن شيئا قليلا
مما أصيبت به المرأة في تاريخ شقاوتها الطويل لتعلمن شيئا مما صنع
محمد ومما أتى به القرآن .

لقد صرح حين على المرأة كانت تشتري فيه وتباع ، وكانت تُملك
ولا تملك ، وتكره على الزواج بل على البغاء ، وكانت تورث ولا
ترث ، وقد جعل منها بعض الأقوام حيوانا بيتيا ، وقد اختلف الرجال
في بعض البلاد في كونها إنسانا ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا ،
وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ، وفي كونها تدخل
الجنة او الملكوت في الآخرة أم لا ، فقرر احد المجامع في رومية انها
حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة

وان يكفهم كالبعير والكلب المقور لمنهما من الضحك والكلام ،
لأنهما احبولة الشيطان . وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع بنته .
وقد يظن البعض ان هذا كله اعا صدر عن الطبقة الجاهلة من الناس ،
ولكن ما يقول لو علم ان شعراء اللاتين رغم أنهم افرطوا في التقصير
في تلمس آثار نفسها وروحها ، وانصرفوا الى وصف جمال جسدها
فقط ، فانهم جميعاً متفقون على تسميتها الشيطان الجميل ، او ينبوع
المسرات السامة ، أما شعراء اليونان ، فكانوا يسمونها : بلية العالم . وان
نفس فما تنسى الفيلسوف اليوناني الكبير افلاطون الذي ملأ الدنيا
بمُثُلِه ، وشغل العالم بعبادته ، وبذل روحه وقطر نفسه لاسعاد الناس
ومحو شقائهم ، افلاطون كل هذا وأكثر ، لم يكلف نفسه قط ان
يستشف أخلاق المرأة ولا ان يتعرف عقليتها ، ولو انه وقف هنا
لالتمسنا له عذراً ، ولكنه قضى حياته أسفاً لأنه ابن المرأة ، وكان
يصرح بازدرائه بأمه . هذا لون ضئيل من ألوان عسف المرأة واضطهادها ،
قبل محمد رسول الله (ص) ، وكان احسن مواساة تلقتها المرأة قبل مبعث
النبي ، هي التي قدمها لها الشعب الفرنسي ، وذلك حين اجتمع مجمع ما كون
في فرنسا بعد ميلاد النبي (ص) بنحو خمس عشرة سنة وجعل يبحث

هل المرأة انسان ؟ ثم قرر المجمع بعد خلاف وجدال انها نعم انسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل .

هذا يحمل رأي العالم المتقدم في المرأة ذلك الحين . أما العالم العربي قبل محمد فقد كان اكثره يمتن المرأة ويحتقرها ، بل كان يرى بعضهم ان وأدھا (أي قتلها حية) وهي صغيرة أجدى وأشرف ، وكانوا اذا بشر أحدم بالأنثى ظال وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتواوى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب سوء ما يحكمون ففي وسط هذا العالم التائه في ضلاله ، الذي كان الرجل فيه يتحكم بحق الحياة وحده ، يتميز بنفسه ويستضعف قيمة المرأة ؛ في وسط هذا العالم الطافح بالشر ، الممتلئ بالرديلة الطاغية بالقوة . طالع محمد (ص) على الناس بالكتاب المبين الذي لا ريب فيه يبلغ الناس قائللاً :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

وقائللاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً » .

وقائلاً : « وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » .

استمعن أيتها الآسمات والسيدات ! الى هذه الايات التي تهدم اول ما تهدم طاغوت الانانية في الرجل الذي كان لا يرى من يستحق البقاء ويستحق التكليف ويستحق مخاطبة الاله ويستحق الارجات العليا في جنات النعيم غيره . كلا فليس هناك ذكورة وأنوثة ، او بتعبير آخر ، ليس هناك فضل لذكر على أنثى ، ولا لأنثى على ذكر ، فهما سواء في تأدية ما وكل اليهما ، وليس التفاضل بالجسم او بالوزن ، او باختلاف الخلق ، انما التفاضل بالتقوى ، فأيهما سبق في اعمال البر ، واجتهد في بث الخير ، واستطاع ان ينفع الناس ، فله الفضل وله الماثوبة وله جنات النعيم ذكرآ كان او انثى . فالمرأة عند الله أخت الرجل لا يتفاضلان إلا بالتقوى . وفي الحديث : كان رسول الله يقول : « إنما النساء شقائق الرجال » ولذلك ساوى الله بينهما في الايمان والتكليف كما ساوى بالجزاء في الآخرة من ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون » وقال تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً .
ولم يقتصر محمد عليه السلام على مساواة المرأة بالرجل في التكليف ، بل ساواها به في العبادات الاجتماعية ، فقد أباح لهن أن يحضرن صلاة الجماعة والجمعة في المساجد ، وأباح لهن حضور العيدين ، ولكن لم يوجب عليهن ذلك تخفيفاً ، لأن للمرأة موانع من ولادة وتربية أولاد وغير ذلك تمنعها من ممارسة عبادتها في المساجد . ومما أوجبه عليها من العبادات الاجتماعية ، الحج ، فهو مفروض عليها كالرجال اذا توفرت لها أسبابه .

سيداتي وآنساتي . إن محمداً عليه السلام اعتبر كن من الرجال فرسي رهان . والمساوات في العبادات والمعاملات ، دليل على التساوي في المواهب ، والتساوي في قبول الخير وفي نشر الهداية . على أن الله شرع لكن من الأمور الاجتماعية ما هو أكثر من ذلك : قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » فأثبت الله لكن الولاية ، وهي تشمل ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي ،

وتشمل النصره الحربية والسياسية . ولئن أسقطت الشريعة عن النساء وجوب القتال بالفعل ، لقد طلبت إليهن ان يخرجن إلى الجهاد ، يضمذن الجرحى ، ويسقين الماء ، ويجهزن الطعام ، ويحرضن على القتال ، وقد ثبت أن بنت رسول الله (ص) فاطمة ، كانت تحمل قرب الماء هي وأم سليم وغيرهما إلى الجرحى ، في غزوة احد يسقينهم ويفسلن جراحهم ، ولما جرح رسول الله (ص) في هذه الغزوة تولت فاطمة غسل وجهه وتضميده .

أيتها الأوانس والسيدات ! إن أمامي أفقاً رحيماً من النصوص تدل كلها على رفع شأنكن ، وعلى العناية بأمركن ، ولولا خوف الاملال لا تيت على ذكر شيء من ذلك ، ولكن لا بد لي من أن أتحدث عن بعض الامور التي ظفرت بها المرأة زمن النبي (ص) والتي لم تظفر بها امرأة قط قبل مبعث النبي

هل سمعن في التاريخ أن المرأة كانت تحمي الرجال وتجيرهن ؟ فاذا علم الناس ذلك احترموا جوارها وأذعنوا لحمايتها ، فلا يمس من أجارت أحد ، وليكن من أقوى الناس .

قالت ام هاني للنبي (ص) يوم فتح مكة : لاني أجرت رجلين من אחائي ، أي هما في حمايتي ، فقال لها النبي (ص) قد أجرنا من أجرت

يام هانيء . وفي الحديث ، أن النبي (ص) قال : إن المرأة لتأخذ للقوم ،
يعني تحير على المسلمين . وقالت عائشة : ان كانت المرأة لتجير على
المؤمنين فيجوز ، ونقل ابن المنذر ، أن المسلمين أجمعوا على صحة إجارة
المرأة وأمانها أي اذا أمنت أحداً ولو كان كافراً لا يستطيع أحد الاعتداء
عليه ، ولتكن المجيرة أئمة امرأة .

وهل سمعن في التاريخ ، أروع من هذه الحرية في حدودها المعقولة
التي تمتعت بها المرأة زمن عمر بن الخطاب ، وكان أمير المؤمنين ؛ وقف
 يوماً على المنبر ونهى الناس ان يزيدوا المهور على اربعمائة درهم فاعترضته
 امرأة وقالت : أما سمعت ما أنزل الله ؛ يقول (وآتيم إحداهن قنطاراً
 فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال اللهم غفراً ، كل الناس أفقّه من عمر وفي
 رواية قال : امرأة أصابت وأخطأ عمر .

هذا وقد ساوى النبي (ص) بين المرأة والرجل ، في مبايعاته ،
أي في عهوده فكان يبايع النساء على أمور في صالحه وفي صالحهن ،
والجميل في هذا أن القرآن سجل مبايعة النساء ، ولم يسجل مبايعة الرجال ،
فقال « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله
 شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه

بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعهن، واستغفر لهن
الله، إن الله غفور رحيم .

وإلى هنا أتوقف لا لأنني استطعت أن أنهى موضوعي ، ولكنني
سقت هذه الأمثلة للدلالة على شرفكن وقيمتكن عند النبي صلوات الله
عليه ، وكيف رفع منكن شأنًا كان من قبل وضيعةً ، وعرف العالم
أجمع أن المرأة لا تفرق عن الرجل إلا باعتبارات تقتضيها مصلحتها
ومصلحة المجتمع . فاذكرن أيتها الأوانس والسيدات نبيكن محمدًا (ص)
أبا لم تظفر الانسانية بمثله ، واذكرنه معلمًا ومهذبًا ، واذكرنه منقذًا
لكن ، في وقت عم البشرية الظلام ، واذكرنه حين انعش براعم
نفوس أسلافكن فتفتحت وأشرقت على الدنيا ، ونالت من العلم
والفهم والعقل ما لم تنله امرأة في غابر ولا في حاضر .

مواعيق الاسلام^(١)

قال الله تعالى في كتابه الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم
« والعصر إن الاِنسان لفي خسرٍ إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات،
وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر » يودع الدنيا كلَّ عصر فوج من البشر،
وتستقبل الدنيا فوجاً غيره ، منذ ابتداء الله عز وجلَّ هذا الخلق حتى جيلنا
هذا ، وكل جيل يأتي يفكر فيما يجعله في هذه الرحلة القصيرة من عمره ،
أنعم بالآ ، وأسعد سفرأ ، وأطيب نفساً . ولكنه مع الأُسف ما استطاع
أن يفعل شيئاً من أجل ذلك . وما كانت حصائد تفكيره في السعادة
والأمن والسلام ، لتحقيق له شيئاً منها ، بل ما كانت التجارب والعظات
في كل جيل ، لتحث أثراً يذكر فيمن بعده ، بل كان كل تفكير وتجربة
وعظة يفنى ويتلاشى بفناء الجيل الذي انبعثت فيه ، وكأن لكل جيل من
الناس بل لكل إنسان تجاربه الخاصة به ، تموت بموته ، ولا ينتفع منها
أحد بشيء .

[١] أُلقيت في الاذاعة السورية .

هذا هو الإنسان المسكين الذي يتعثر في طريق حياته ، ما يستفيق من كبوة إلاّ لیسقط في كبوة ، حتى لكأنه في كثرة العثرات يقطع هذه المرحلة مرحلة العمر حبواً ، ولقد عجز عن انتشاله مما هو فيه ، فلاسفته وحكماؤه وعلماءه ، ملوكه ورؤساؤه وقادته ، وأنى لهم ذلك ؟ وقد عجزوا هم عن تخليص أنفسهم . بل كانوا من حياتهم في بلائين ؛ بلائهم من أممهم وبلائهم من أنفسهم ، هذا هو الإنسان الخاسر على اختلاف شعوبه وقبائله ، وعلى اختلاف أزمانه وأقاليمه وبيئاته ، وعلى اختلاف رقيّه وانحطاطه ، لكل قبيل ألوان من الخسران ، إن اختلفت في ظاهرها فهي في الجوهر سواء ، وقد يكون الخسران أحياناً على قدر ما للأمة من مظاهر النور والحضارة والمدنية . وإلا فأنبئونا أي نوع هذه الحروب التي يصلها ملايين البشر ، ضحية ما يزعمون من المبادئ ، وهي بغير التواء وحشية الإنسان القديم الكامنة في أروية الإنسان الحديث . الإنسان - لا شك - في خسر ، كما أقسم عليه الله سبحانه في كتابه العزيز خسر يؤلف بين أشتات من البلاء والخزي والعار والشر والأذى ، فهل لهذا من آخر ؟ وهل لصق هذا الخسران بالإنسان واتحد معه حتى لا يستطيع الفكك منه . إن الله سبحانه لم يقنطنا من إمكان التخلص من

الخسر : بل أعطانا نموذجاً من الإنسان نجا من الخسران ، وأعطانا صفاته الكاملة في غاية من الإيجاز والوضوح والقوة في قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . هذه أربع كلمات ، ضمت في ثناياها الضمان الكامل لتفادي الخسران ، ضمت في ثناياها أروع الآيات لتحقيق المثل الانسانية ، ولتحقيق التعاون المشترك ، ودوام هذا التعاون مادام مؤيداً بالحق والصبر ، ومهما يحاول أقطاب الفكر أن يعدوا من مشاريع ، ويصوغوا من موثائق ، ويعقدوا من اجتماعات في في سبيل تحقيق السلام ، وفي سبيل تآخي الشعوب ونزع ما بينها من خصام ، فلن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، وسيدورون من نتاج تفكيرهم في حلقة مفرغة ، ينتهون من حيث يبتدئون ، ويبتدئون من حيث ينتهون ، أو يعودوا أدرأجهم إلى هذه الكلمات الأربع : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » وما كان الله في هذا ليكلفنا فوق ما نطيق ، فإذا تجرد الإنسان من أهوائه قليلاً ، كان تنفيذ هذه التواصي سهلاً على كل إنسان ممتعاً له . فالإيمان بالله ، إيمان بوجود قوة غالبة وراء هزم المادة ، تشعر الإنسان بضعفه وتخفف من غلوائه ، وتشذب بمقدار عمقها فيه من حيوانية ، حتى يبدو إنساناً مهذباً ، شعوره بغيره كشعوره بذاته ،

يفسح له المجال لممارسة حقه في الحياة كما يفسح لنفسه. حتى لتصل به الحال إلى أن يكون اهتمامه بنوع الإنسان أكثر من اهتمامه بفرد من أفرادهِ، يفرح لمسرته، ويستاء لمساءته. والايّمان بالله هو الذي يوجد للحياة معنى وغاية، وإذا فقدت الحياة معناها وغايتها كانت آلية لا تستحق الاكتراث، بل لا تستحق البقاء والعناء، وبالايمان بالله تنفرج مشاكل العيش، وتحل عقدة الموت، ويثوب الانسان إلى الطمأنينة وراحة الأبد، فالايّمان أساس متين لتثبيت دعائم الاستقرار في هذه الدنيا، وإشاعة السلام والرضا والنعيم بين أبنائها، ولذلك ابتداء الله به في قوله: **إِلا الذين آمنوا**، ثم أردفها بقوله تعالى: **وعمِلوا الصالحات**. وليس المراد من العمل الصالح هذا المعنى الضيق وحده من أوراد وطقوس وعبادات، وإنما المراد أشمل من ذلك وأعم، ولذلك وردت كلمة الصالحات بصيغة الجمع، لتشمل كل صالحة يقدمها المرء لنفسه، ويقدمها لغيره من الأفراد والمجموع، على حسب قدرته، وعلى حسب ما رزقه الله من عقل وذكاء وعلم وتجربة. فالسياسي المخلص، والعالم العامل، والمخترع والمكتشف، والاقتصادي والتاجر وكل ذي صنعة، هؤلاء جميعاً وغيرهم ممن يعملون الصالحات، إن أرادوا بأعمالهم نفع الناس مخلصين، ولم يألوا في ذلك جهداً. فالعمل الصالح إذن

قيام بحق نفسك ، وقيام بحق غيرك ، وقيام بحق المجموع ، وقيام بحق الله عز وجل . والكلمة الثالثة من الميثاق الخالد قوله تعالى : وتواصوا بالحق . هذه الكلمة الصغيرة وحدها ميثاق كامل عظيم ، تنفي عن كل ما وضع من موافيق وعهود ، ومن حكي وعظائم ، فإذا تواصت الأمم كلها بعضها مع بعض في اتباع الحق صريحاً غير مدخول ، واعطيت الشعوب صغيرها وكبيرها حقها في تقرير مصيرها بالفعل ، وفي أن تعيش وراء حدودها وفق رغباتها من غير إكراه ، وإذا تمتع الفرد بحقه في الانتفاع بحريته في موطنه ، من غير أن تغطي حريته على حرية الآخرين ، إذا كان كل ذلك ، قضينا على جميع أسباب المنازعات والخصومات بين الأفراد والشعوب ، فالقناعة بالحق فيها كل الخير ، ومن طمع بحق غيره ، فقد زرع الشر ، ومن زرع الشر ، لا بد وأن يحصد ، ولقد ختم الله تعالى موافيقه الثلاثة بقوله : وتواصوا بالصبر . والتواصي بالصبر ملاك الأمر كله . إذ به يمكن تثبيت استمرار هذه الكلمات الثلاث ، وتوثيق عراها . وما يستقيم أمر بغير الصبر ، والانسان في اقبال الخير والشر عليه ، محتاج إلى الصبر ، فصبره على الخير في الاحتفاظ به سليماً من دواعي النقص أو التقصير ، وصبره

عن الشر ليبقى بعيداً عنه ، محترساً من الانجذاب إليه .

والانسان مما ركب فيه من غرائز حيوانية نزاع إلى الظلم
والنعدي والسطوة واستحلال ما حرم عليه ، فان لم يضبط من أهواء
نفسه ، ويحرص على إنامة غرائزه بالترويض والصبر ، ثارت أهواؤه
واستيقظت غرائزه ، فهدم ما بناه وعاد سيرته الأولى فالأمان بالله
وعمل الصالحات والتمسك بالحق ، كل أولئك محتاج إلى الصبر لتثبيتته
وإدامته ، والصبر - كما يقول ابن المقفع - صبران ، صبر الرجل على
ما يكره ، وصبره على ما يحب ، فالصبر على المكروه أكثرهما
وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً . ويقول أيضاً : واعلم أن اللئام
أصبر أجساداً ، والكرام أصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوح بأن
يكون جلد الرجل وقاحاً ، أو رجله قوية على المشي ، أو يده قوية على
العمل . ولكن أن يكون للنفس غلواً ، والامور محتملاً ، وفي الضر
متجماً ، وانفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطة ، وللعزم مؤثراً
واللهوى تاركاً ، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً ، وعلى مجاهدة
الاهواء والشهوات مواظباً ، ولبصره بمنزله منفذاً .

يأيتها المسلمون ، ويأيتها الناس جميعاً ، هذا ميثاق الله اليكم فاعملوا

جاهدين حتى تحققوه فاذا حققتموه ، فقد ظفرتم بكل شيء مما
تطالبون، ظفرتم بالسعادة والطمأنينة والأمن والسلام أفراداً ومجتمعات
أيها المسلمون رددوا كل يوم على اسماءكم وأفكاركم وقلوبكم
ونفوسكم قول ربكم تعالى :

والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .



الصراط المستقيم (١)

قال تعالى :

« وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ
فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمِ وَصَايَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .
مَسْكِينِ هَذَا الشَّرْقُ الدَّامِسُ ، فَلَقَدْ كَانَ مَشْرِقُ النُّورِ وَالْحَضَارَةِ
وَالْحَيَاةِ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ ، ثُمَّ أَمْسَى وَقَدْ اسْتَفْرَقَ بِنُومٍ طَوِيلٍ فِي لَيْلٍ مَدْلُومٍ ،
أُورِثَهُ ضَعْفًا وَذَهُولًا وَخُورًا ، حَتَّى رَضِيَ بِوَأَقَعِ الْيَمِّ ، وَاسْتَمَهَدَ الذَّلَّ ،
وَاسْتَكَانَ لِلْمَصِيبَةِ ، فَنَسِيَ نَفْسَهُ ، وَنَسِيَ مَاضِيَهُ ، وَنَسِيَ مَقُومَاتِ حَيَاتِهِ ،
وَنَسِيَ أَثَرَهُ فِي الْعَالَمِ ، وَلَوْلَا هَذِهِ الْمَزَاتُ الْعَنِيفَةُ الَّتِي تَتَوَالَى لِبَقِي الشَّرْقِ
الْمَسْكِينِ مَسْتَسْلِمًا لِنُومِهِ الْخَابِلِ ، وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْمَزَاتِ الدَّائِيَةِ
مَا يَبْعَثُ الْمَيِّتَ ، فَفَتَحَ هَذَا الشَّرْقُ عَيْنِيهِ بَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ ، وَنَعُوذُ
بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ يَقَظَةُ الشَّرْقِ الْيَوْمَ يَقَظَةُ الْمَخْبُولِ ، مَا يَسْتَيْقِظُ إِلَّا لِيَنَامَ ،
وَمَا يَنَامُ إِلَّا لِيَمُوتَ . لَقَدْ فَتَحَ الشَّرْقُ عَيْنِيهِ ، وَرَأَى مِنْ حَوْلِهِ أُمَمًا

(١) القيت في الاذاعة السورية

تريد ان تنقض عليه ، لتخلبه مستيقظاً ، كما استنفدت دماه نائماً ،
ولكنه يا للأسف ما زال لا يدري كيف يتقيها ويحذرها ، ولا كيف
يدفع كيدها عن كيانه ، والاغرب انه شغل بفرحة هذه البقطة
الخطرة ، التي أنت بعد نوم طويل عن كل استعداد لتثبيتها واستمرارها
في حال تريد هذه الامم المفترسة ان تغتم هذه الفرصة المواتية فرصة
ذهوله وحيرته ، لتعين له طريقة التي يسير فيها ، بعد ان استوى واقفاً
يريد المسير ، وترى هذه الامم ان استعدادها خير استعداد لاقفاء
آثارهم ، لاقفاء الآثار التي يرسومونها له ، لافادته ومصلحه بالطبع ،
بل لفادتهم ومصلحتهم . وتتجاذبه اليوم قوى مختلفة ، تضادة احياناً ،
مقاربة احياناً أخرى ، حتى لنخشى من شدة الجذب ان تُقطع اوصاله
فتأخذ كل أمة منه نصيبها ، وما نصيب الامم منه في هذا العصر ،
أرضاً تقتطمها منه ، أو أمة تستمرها ، فقد قضى هذا العصر على هذا
النوع من السيطرة ، وانما نصيبها منه ، ان تستولي على أفكاره ،
وتجذب نحوها هواه وشعوره ، وتملك عليه وجهته وأمره ، فيتبعها
مطواعاً منذراً ، عن رضى منه واختيار ، وما تفيده بعد ذلك بقظته ؟
بل ما يفيده استقلاله وكثرته ؟ وقد اضاع روحه ، وبدد شخصيته

وأغرى به الطامعين الذين بدلوا استعماراً باستعمار ، وسيطرةً بسيطرة .
وما استعمار الافكار والمشاعر الا نوع من الاستعمار القطيع الذي
يرتدي رداء الحرية الكاملة ، فيخيل للشعوب عزتها ويرضى كبرياءها
ولو فطن الشرق حقاً لعلم ان الاستعمار القديم ليل له آخر ، ثم ينباح
بعده صبح السيادة والحرية ، أما الحديث فهو ليل يخني الويل ، وما
ينتهي الا ليبدأ ، وما هذه الافكار التي يغزونها بها ويريدون منا ان
نكون افكارنا ؟ انها ليست في اكثرها خيراً ، فقد خلت من معاني
الشرف والسمو ، ومعاني الرحمة والاحسان ، ومعاني الحق والعدالة
وزادت بها شرور العالم وويلاته ، وهي لا تهتم الا بالحياة الراحنة التي
تتعلق بالامة صاحبة الشأن ، أما ان تهتم بالصالح الانساني لغاية انسانية ،
فهذا منها أبعد من رجعة الماضي ، إذن فماذا يدعوننا لاتباع آرائهم ،
والنفي بأفكارهم ، الآن افكارهم وآراءهم أثارت الحرب الطاحنة
الساحقة ، بشكل عالمي مرين في ربع قرن ؟

لا يا أيها الشرق ! يا منبع الخير ، ويا مفيض الرحمة والانسانية
ويا معلم العالم ، لئن كان الغرب قد افسد رسالتك المثالية بعادته ، ما ينبغي
ان تعود اليه تلميذاً تائقاً منه هذه الرسالة الفاسدة ، فاذا لقمها منه

وأصبحت مثله فمن نرجو بعد ذلك لانقاذ العالم من ورطته ؛ ان العالم اليوم لا ينقذه ما كان سبباً لدماره ، وما يحويه ما كان سبباً لموته ، انما ينقذه ويحييه رسالتك أيها الشرق ، رسالة الروح التي توحى ان ليست الحياة مادة كلها ، وليست الحياة مدفعا ولا طائرة ولا سلاحا كلها ، انما الحياة حياة الامة والاطمئنان والاستقرار ، حياة السمو والصفاء والرضى ، وما تكون الحياة كذلك ، الا اذا سيطرت الروح ، ونحكت في آلية العقل والجسم وماديتها ، فكيف تدع ايها الشرق هذه الرسالة العظمى لتأخذ من الغرب بدلها رسالة خاسرة ، رسالة يستبيح أن تأخذ من الفقير لقمته ، ومن الغني نعمته لتدخر من السلاح ما تستخدم به الارض بالقتلى ، وتضعها بالتدمير . هذه الرسالة هي رسالتهم العملية جميعا ، ان اختلفوا في اسمائها فما اختلفت هي في حقيقتها ، لا فرق بين اولئك الذين يظهرون الحذب على العامل والفقير والفلاح ، وبين اولئك الذين يظهرون بمظهر الحربة والديمقراطية ، كل هؤلاء سواء ، وكل يعمل جاهدا ، ويتملق البشر انه على الحق ، وانه اولى بان يؤيده الناس ويؤازروه ، وهم جميعا انما يعملون لانفسهم لا للناس ، بل الحقيقة انهم يعملون لفئة من الحاكمن ومن لف لفهم

ابعد كل هذا يجوز لهذا الشرق المسكين ان يدع رسالته الرائعة
ويبدد شخصيته الكبرى ليتبع اوائك الذين لا يجدون ممام فيه
ملاجاً ولا منجى .

ميزة الغرب ايها الشرق ذاتية التي استمدتها من قوته ، والتي
يفرضها علينا ، ونقبلها نحن مختارين طائعين ، رغم انها ذاتية قد تكونت
من الفكر الصالحة والفسادة على السواء ، ونقبلها نحن جميعها من غير
ما نفريق بين صالحها وفاسدها ، فاذا أردنا أن نقلد الغرب بحق فانقلده
في شيتين ، في وجهته العامة والعملية ، وفي شخصيته ، أي أن تكون
لنا شخصية قوية ، تقابل شخصيته ، وما تكون لنا هذه الشخصية ،
الا اذا تمسكنا بمقوماتنا القديمة وتاريخنا ، وإلا اذا استوحينا في
حياتنا في فروعها كلها ديننا وتشريعنا ، فاذا جمعنا بين علم الغرب ودين
الشرق ، فقد تمت لنا ذاتيتنا ، وتم لنا استقلالنا وحريتنا ، واذا قدرنا
على ذلك ، فالمرحلة التالية ان نعد العدة لنغزو الغرب بروحنا ، لعلنا
نستطيع أن نلقح ماديته بروحنا ، كما يلقح روحنا بماديته ، فيتم التساوق
والتقارب ، فيكون بذلك نجاة العالم ، فان لم تتحقق لنا شخصيتنا
وبقينا نتبع الغرب حتى فيما يشكرو ويود التخلص منه ، فنحن عبيده

ان لم نكن بالاستعمار والقوة فنحن عبيده بالانقياد والاتباع .
فيا أيها الشرقيون ويا أيها المسلمون ، لاتفنوا بآثار اوائلك
الذين يستبيحون ارضكم ونفوسكم ، ثم لا يبالون بكم شقيتم أم سعدتم
بل استمعوا بتشريعكم ودينكم ودستور قرآنكم :
قال تعالى « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصيكم به لعلكم تتقون .



الحياة والنور (١)

قال الله تعالى :

أومن كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً ، يشي به في الناص ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون .

هذا مثل من امثال القرآن الرائعة ، رمزه الله سبحانه وتعالى الى نوعين من البشر ؛ نوع بث الله فيه الحياة بعد ان كان ميتاً ، وقذف في قلبه النور ، ونوع غمره الله في الظلمات حتى لا يشعر ان في الحياة غيرها فهو راض بها ، بل قد زينت له فرآى بها متعة وهناءة ، فاستقر بها واطمئن . وما أراد الله سبحانه بالحياة هنا ، الحياة التي تفصل الحيوان عن الجماد ، ولا بالنور الذي يشع عادة ويضيء ، كما لم يرد بالظلمات تلك التي تحدث عند اقبال الليل وادبار النهار .

وانما أراد سبحانه وتعالى ان يضرب الحياة مثلاً ، للإيمان الحق بقي

[١] الفيت في الاذاعة السورية

الذي يبعث في الانسان الحيوية والقوة والارادة والصبر ، ويوجد
النزوع الى العدل والحق والخير ، ويوقظ المكرمة والشرف والمروءة .
فاذا فقد انسان هذه الصفات وامثالها ، فكأنما فقد الحياة ، وما
الحياة الخالية من معاني الحياة إلا موت خلا من صورة الموت ،
ولكن فيه معناه .

و قرن سبحانه الحياة بالنور في قوله : « وجعلنا له نوراً يمشي به في
الناس » ليضرب به المثل على استمرار الهداية بعد الايمان ، وانكشاف
الحقائق بعد خفائها ، ثم تمييز الشر عن الخير ، والقبيح عن الحسن ،
وتبين الحق من الباطل ، والخير من الشر . فالحياة والنور ، على ما أرادها
الله ، هما يوجدان الانسان النافع الصالح للحياتين ، الانسان الذي يسير
دائماً بنفسه وامته الى الامام ، لا يعرف الوقوف لانه مملوء بالحياة والقوة
ولا يعرف الضلال ، لان الله جعل له نوراً يمشي به في الناس .

ولقد جعل الله في مقابل الحياة والنور للمؤمنين ، الظلمات اغيهم ،
وضربها مثلاً لمن كان في عمية من ظلمة الجهل والهوى ، وظلمة الضلالة
والعمى ، وظلمة الكفر والموت ، ولذلك جمعها الله في قوله . كمن مثله
في الظلمات ، ولم يقل في الظلمة لتجمع اموراً كثيرة ؛ وفي الظلمات

دلالة على الموت مع توضيح اسبابه ، ومن يغم في الظلمات ولا يخرج منها ، لا يدرك ما الحياة وما النور فهو - لاجرم - ميت وان كان في الاحياء .

واقدم جمع الله بين الحياة والنور في آيات كثيرة ، منها ما صرح به بلفظ الحياة والنور ، ومنها ما كنى به عنها ، قال تعالى ، « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم » جمع الله في هذه الآية بين الروح الذي به تكون الحياة ، والنور الذي به يكون الاشراق ، وأخبر ان كتابه الذي انزله على رسوله (ص) متضمن للأمرين . فهو روح تحيا به القلوب ونور تنضي به واشرق ، وكنى الله تعالى في آية اخرى عن الحياة بالماء ينزل من السماء فتسيل به الأودية . وكنى عن النور بالنار لانها مبعثة ، وان كلاهما يحتمل زبداً رايك لا ينفع الناس قال تعالى « وهو الذي انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رايك ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاءً ، واما ما ينفع الناس فيمكث

في الارض كذلك يضرب الله الامثال، يضرب الله المثل لوحيه بالماء؛
فكما يحيي الله الارض بالماء، يحيي القلوب بالوحي والقرآن، وضرب
المثل بالنار لان بها الاضائة، شبه ما تحمله القلوب من الشهوات والشهوات
حين يفجؤها الحق واليقين بما يحتملة السيل وبما يوقدون عليه، من
الزبد، ثم ذكر العبرة من المثل فقال: فاما الزبد فيذهب جفاء، واما
ما ينفع الناس فيمكث في الارض.

فالحياة والنور اذن هما رمزا دعوة الله ورسوله، فهذه الدعوة
نابضة بالحياة بأقوى معانيها، مترعة بالنور بأشرف خصائصه، وما
يلبها ويستجيب لها الا الطامع بالحياة وعنده قابلياتها، قال تعالى: «ان
هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا»، وقال تعالى «يا ايها الذين
آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحيبكم» ولا امر ما جعل الله
وحبه الذي يلقيه الى انبيائه روحا، قال تعالى «ينزل الملائكة بالروح
من امره على من يشاء من عباده» وقال تعالى «وكذلك اوحينا
اليك روحا من امرنا» ولقد جعل الله من لا يستمع لدعوة الرسول
ميتا، حين خاطب رسوله بقوله «ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع
من في القبور».

فالإسلام حياة ونور ، فاذا فقد مسلم الحياة والنور فهو دَعِي
الصق نفسه بالإسلام إصافاً ، ولا يرضى الله ولا رسوله أن ينسب
إليه من خات نفسه من معنى الحياة وخلأ قلبه من هداية النور .

وليس يكفي أن تقنع من الإسلام بهذه الألوان الظاهرة من
الأشكال والأقوال لتكون من أهل الحياة والنور ، وإنما ينبغي أن
تبدو مناصرة الحياة وحرارتها وفعاليتها، وأن ياتمع أمامنا نور الهداية
يرشدنا إذا ضل الناس الطريق .

وما الحياة والنور اللذان ضرب الله المثل بهما ، هما المتمثلان في هذا
العصر ، فالعصر الحديث لا يحمل من الحياة إلا ماديتها وبغيتها وطغيانها
ولا يفهم للحياة معنى ، إلا أن تحاول كل أمة الاستئثار برغد العيش ،
وسعة السلطان . على أنها لا تحمل من النور ايضاً إلا ذلك البهرج
الظاهر الذي يشغل الأحاسيس ، ويستهيوي الميول والشهوات ، أما
ذلك النور الذي يحمل معنى الإنسانية والرحمة والعدل وحب الخير ،
والإيثار والنصفة ، فلا نستطيع أن نلتصق له في هذه المدنية أثر يذكر
كلام لم يدعنا الله لهذا النوع من الحياة والنور، وإنما دعانا الله سبحانه
للحياة الحقيقية والنور الحقيقي الذين جاء بهما رسول الله من

عند ربه قلب بهما اوضاع أمة كاملة رأساً على عقب ،
وصنع بهما أحياء قادرين ، بعد أن كانوا يتدرجون الى الفناء ،
وفوق ذلك فقد جعلهم القرآن انشطأمة الدنيا بالسبق الى بناء الحضارة
ولكن مع اسمى معاني الانسانية ، واقدس معاني الحق والعدل والحرية
فعلى المسلمين جميعاً ان يجدوا نفوسهم ، ويجددوا عزائمهم ، ويتجهوا
بقلوب مملوءة شوقاً إلى ذلك المنبع الذي لا ينضب معينه ، ككتاب الله
الذي تفور منه الحياة ويشع منه النور ، والذي له من القدرة وحده
ان يبعثنا من مرقدنا هذا ويكشف عنا ما غشينا من ظلمات في احقاب
طوال . القرآن وفهمه والعمل به ، خير ضمير لبث روح النهوض في
كياننا الفردي والاجتماعي . فالى هذه الحياة ، والى هذا النور ايها
المستمعون ، وإلى العمل على كشف هذه الظلمات المحيطة بنا ، والى
الاحاق بذلك الركب الذي يرمقنا بعين مملوءة اشفاقاً وتاهلاً ، قبل أن
تتمنى ذلك فلا يتاح لنا ، وقبل أن يأتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا
من أتى الله بقلب سليم .

التباعد على الجبراً^(١)

قال تعالى :

قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ،
ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين .
روي ان الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والاسود بن عبد
المطلب ، وأممية بن خلف ، وغيرهم من صناديد المشركين ورؤسائهم ،
اتوا النبي (ﷺ) فقالوا له : تعال حتى نعبد آلهك مدة ، وتعبد آلهتنا
مدة ، فيحصل بذلك الصالح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ،
فان كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت
منه حظاً ، فنزلت هذه السورة رداً عليهم ، كما نزل في هذا الشأن
أيضاً قوله تعالى : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » ، ولقد
أوحى اليك وإلى الدين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك
ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ، وما

(١) أقيمت في الاذاعة السورية .

وماقدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيمة ، والسموات
مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

يعلمنا الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة التي قد نمر عليها
مسرعين ، الثبات على المبدأ ، والجهاد دونه ، والتضحية بكل شيء في
سبيل صباته والمحافظة عليه ، وعلما أيضاً ان نصدع به من غير
مواربة ولا خنوع ولا تردد ، هؤلاء زعماء قريش من المشركين جاؤوا
يعرضون على النبي (ﷺ) أن يشركهم في عبادتهم الباطلة ، وان
يشركوه في توحيدهم وعبادته ، او بالامح برضون عليه أن يكون
هو ومن تبعه انصاف موحدين ، وأن يكونوا هم ومن وراءهم انصاف
وثنيين ، ليتفادوا بهذا التدبير الفتنة ، ويحققوا الدماء في الظاهر ،
ويختبروا إيمان النبي عليه السلام برسالاته ، ومقدار تعلقه بمبدئه في
الباطن ، ومن يستجب لمثل هذا التدبير فقد آمن بإمكان أن يكون
المرء نصف صادق ، أو نصف مؤمن ، أو نصف موحد ، ومن آمن
بذلك فقد سخيف ومجن ، وطعن الى ذلك الصدق والايمان والتوحيد ،
ودعا الى التحلل والميوعة في الاخلاق الثابتة ، لذلك انزل الله على نبيه
الجواب على عرضهم حاسماً صريحاً قوياً ، بقوله : قل : يا محمد لهم « يا أيها

الكافة ون «بآهي الواحد الصمد» لا تعبدون ما تعبدون « من هذه الاوثان التي لا تضر ولا تنفع . بل لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا انتم عابدون ما أعبد » إلهاً بيده الأمر كله ، لا صراركم على التمسك بما وجدتم عليه آباءكم من الشرك والضلال . ثم كرر هاتين الجملتين مرة ثانية ، ليرفع من أفكارهم الوهم في إمكان ان يستجيب النبي (ﷺ) لطلبهم ويقع في موضعه اليأس من إمكان تلبية لهم وختم هذه السورة الخامسة التي فصلت فصلاً تاماً بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، بهذه الجملة الحازمة العارمة التي تصح أن تحتل بها في مثل هذا المقام ، وهي قوله تعالى : «لکم دینکم ولی دین . أي لکم وحدکم دینکم المضل لا أشاركکم بذرة صغيرة منه ، ولی فی مقابل ذلك دینی الذي لا يتعلق من دینکم بأي سبب ؛ فكيف يصح أن أخطو اليکم خطوة واحدة ؛ ولو أن النبي (ﷺ) قبل منهم هذه الدعوة أو بعضها - وحاشاه أن يفعل - لشك برسائله ، ولو شك رسول برسائله لوجب أن تنتزع منه ، والرسول جميعهم منزهون عن ذلك ، ولو انه قبلها منهم سياسة ومداراة ، لأفدت من يده القوة قوة العزوة التي ما كانوا يخشون من النبي (ﷺ) واصحابه مثلها ، وحاشاه

عليه الصلاة والسلام أن يقبلها منهم سياسة ومداراة . على أنهم لا يجوز أن تكون العقائد الثابتة موضع مساومة ، وإن تكون قيد السياسة التي لا تعرف لونا ولا تخرج إلى مبدأ ، فقد تكفر السياسة حين ترى حاجة إلى الكفر ، وتؤمن حين ترى حاجة إلى الإيمان . وعرض المشركين هذا ، إن كانوا فيه صادقين ، من أنصاف الحلول ، وأنصاف الحلول ، لا تستطيع السيطرة على الخلاف في المبادئ أبداً ، بل لا تقدر على الدوام منها ، وأما المنازعات العادية ، فقد تملك أنصافُ الحلول أن تحقف من حدثها موقتها ، كالمسكن من الادوية ، ونرى أن كل أمة تعالج قضاياها بأنصاف الحلول ، لا يزيداها ذلك إلا استفحال الشر وعظم البلاء ، والدنو من الهاوية ، وليست هذه السورة خاصة بتعليم النبي (ﷺ) ولا خاصة بالرد على المشركين ، وإنما هي لتعليم المسلمين جميعاً في كل زمان ومكان أن يكونوا مؤمنين بعقيدتهم إيماناً لا يقدر أحد أن يساوم عليه ، وأن يكونوا مؤمنين بحقوقهم إيماناً يحمل أعداءهم على احترامه وهيبته ، ويخيفهم أن يعشوا به أو يدنوا منه ، وأن يكونوا في ذلك صريحين حازمين أقوياء ، ليس في عزمهم ثغرة واحدة يستطيع أحد أن ينفذ إليها . ولقد كان من أهم عوامل انتصار النبي (ﷺ) في

هذه الدعوة الكبرى ، ثباته على رسالته ، ورضاه بالاذى الكثير ، لنفسه
ولن تبعه ، عن أن يلين لهم ولو بكلمة واحدة فيها مساس بجوهر
دعوته . ولقد كان له ربه بالمرصاد ، حتى عتب عليه بلهجة شديدة ،
حين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم لما جاءه قائلاً له علمني مما علمك
الله ، والنبي مشغول عنه بدعوة صناديد قريش الى الاسلام ، فقال له
ربه : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو
يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فانت له تصدى ، وما عليك
الا يزكى » ماضي الله لنبيه (ﷺ) أن ينفر من أعمى فقير مؤمن في
سبيل دعوة زعماء قريش ، لأن الدين لا ينصر بادخال زعماء القوم ،
ولا ينصر الدين بالكثرة والمال وحدهما ، وإنما ينصر اول ما ينصر في
أن تكون رسالته عملية لاشكالية ، وأول رسالة النبي تحقق العدالة بين
الناس ، لافي النواحي الاقتصادية والصحية مثلاً ، بل في كل شيء ،
حتى في إقبال النبي (ﷺ) على الناس جميعاً بوجه واحد ، وقلب واحد
ولسان واحد . فكل هذا درس للنبي (ﷺ) في الظاهر ، ودرس
للمسلمين جميعاً في الحقيقة والباطن ، صراحة في المبدأ ، وصنع في
الحق ، وعزم على إقناذهما وإقناذهما ، وكم من باطل ظاهر البطلان

أجمع عليه قوم وتشبثوا به وفرضوه فرضاً ، كان أمضى نقاذاً وأشد
انتشاراً من حق ظالم يبد قوم هم أنفسهم يشكون بقيمته ، ويترددون
في حمايته ، وينافقون عند نسبته اليهم أو نسبتهم اليه ، فما ظننا بدين
كله حق وعدل آمن به اتباعه لإيمانهم بوجودهم ، ثم حووه أكثر مما
يحمون أنفسهم وأموالهم ، ومنعوه من الأذى كما يمنعون حريمهم ،
ألا ينتصر وينتشر في الآفاق ! هكذا كان النبي صلوات الله وسلامه
عليه وصحابته ومن تبعهم آمنوا بحقهم فنصروه ، وانتصروا
أروع انتصار وأفخمه ، وشككنا بحقنا فضعفنا من نصرته ؛ ففساط
علينا من كنا نعتقدهم أضعف الناس وأرذلهم وأدناهم .

واما بعد ، فلأياخذ المسلمون من هذه السورة درس الحرص على
المبدأ ؛ والدعوة اليه ، وحمايته ، وعدم النفاق فيه ، وليس هذا في
الدين والعقيدة وحدهما ، وإنما في كل شيء يس مصالح المسلمين في
الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع ؛ فاذا جاء من يكيد لنا في ديننا
ويريد ان يشككنا فيه فلندعهم اليه ؛ فإن أبو وأصروا ، فلننبذهم قائلين
لهم : اسم دينكم ولنا دين . واذا جاء من يسخر بترائنا ويصغر من شأن
أسلافنا ويتهافت على اعداء دينه وبلاده ، فاطرحوه جانباً

وقولوا له : لك دينك ولنا دين . ومن كفر بقوميتنا ، وزهد
بتشريعنا ، وأعرض عن تحقيق آمالنا ، فليس منا ، وهوؤلاء لهم دينهم
ولنا دين . ومن بقي حريصاً على تفكك الأمة العربية ولم يسمع إلى لم
شمئها وتوحيد كلمتها . وما انفك يستغل شتاتها وتفرقها فهو عدوها ، فله
دينه ولنا دين .

فيا أيها الكافرون بديننا وتاريخنا وتراثنا وبتشريعنا وقوميتنا
ووجدتنا ! لا نعبد ما تعبدون فكفوا عن دعوتنا إلى كفركم . وما نظنكم
تعودون إلى حظيرتنا فتعبدون ما نعبد ، مادامت أهواؤكم الشاذة
تدفعكم إلى غير ما نعبد ، فاذا رفضتم دعوتنا ، وأصررتم على ما أنتم عليه
واستكبرتم ، ولم ترعوا حق الله ، ولا حق العروبة ، ولا حق الجوار ،
ولا حق مصلحة الوطن . فلكم دينكم ولنا دين .



القرآن والعلم (١)

كثير من المتعلمين المسلمين - بله غير المسلمين - يظنون
أن القرآن الكريم كتاب مثل كتب الدبانات ، ليس فيه الا التأثير
بالعاطفة او بالخيال او بانارة الشهور . وهذا من الجهل الفادح بكتاب
كانوا به مسلمين ، بل بكتاب لم يعرف له نظير بمطاردة جيوش الاوهام
والاساطير في العالم قديمه وحديثه ، فالقرآن الكريم . وهو الكتاب
السموي الذي حرر الانسان من سلطة الانسان ، وحرره من سلطة
الوراثة والبيئة والهوى ، لينظر الى الاشياء بتجرد ، ويحكم عليها حسناً
وقبحاً بعقله الذي أودعه الله فيه ليستعمله لا لمطله ، يقول الله تعالى في
كتابه الكريم « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني »
وقد نهى الكتاب عن ان يَتَّبِعَ احداً عن غير علم في قوله : « ولا
تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه
مستولاً » ونهى عن المشركين الجاهلين في اكثر من آية اتباعهم لا باهم

[١] القيث في الاذاعة السوربة

حتى في الضلال من غير بصيرة وتعقل « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وإذا كان كثير من المال كتابية وغير كتابية تعيش وترعرع في ظلم الجهل والامية والتأخر، فإن القرآن كتاب المسلمين قدس القلم الذي هو رمز التعلم تقديساً جـوله يقسم به في قوله : « ف والقلم وما يسطرون » وامتن الله على خلقه بأن علمهم بالقلم في قوله : « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم » ولقد كثر ورود لفظ العلم في القرآن كثرة لم يجارها بها كتاب ديانة ولا غيرها، حتى كان هذا اللفظ من أكثر الالفاظ تداولاً في تعابير القرآن مما يدل على ان القرآن الكريم اهتم كثيراً في ان يلقف الناس الحقائق ويوعبوها صدورهم وعقولهم ؛ ويدل ايضاً على ان القرآن قد آخى العلم مؤاخاة تشعر أنها من أصل واحد، فالعلم الذي يعنى باكتشاف الاشياء كما هي في الواقع أخ للقرآن الذي يريد من متبعيه ان يفهموا هذا الكون البديع النظام الرائع التركيب فهماً صحيحاً، ليعلموا أن من ورائه بارئاً ومصوراً قد أحسن كل شيء خلقه ؛ فالقرآن والعلم هما بهذا أخوان بل توأمين . ولا يتوهم متوهم ان القرآن الكريم نزل ليشرح نظريات خاصة في علم من

العلوم ، فها هو بسبيل ذلك ، وإنما وضع اصولاً عامة لكثير من المعارف
تصريحاً او تلويحاً ، واذا ما ظن بعضهم ان بعض آيات الكتاب الكريم
ربما جاء مخالفاً لما تلقفوه من علم فان هذه الآيات لم يكن القصد منها
التحقيق في كنهه سنة من سنن الكون ، فليس هو - كما قدمنا - بسبيل
ذلك وإنما القصد تصوير ظاهرها في ذاته ، او في حركته وسكونه ، هذا
الظاهر الذي يمكن ان يدركه الناس جميعاً على اختلاف ملكاتهم
ومواهبهم ، ويعلم نفوسهم جمالاً وروعة وعظمة ، على انه كثيراً ما
يكون تصوير الظاهر في جماله وعظمته أروع من اكتناه حقيقته ، فالقمر
في ظاهره جميل جذاب ، كل الناس مولعون به ، ينظرون اياه في
الصيف لينعموا بأنواره الفضية التي يسكبها ناعمة هادئة على الارص ،
فاذا علموا من حقيقته أنه لا نور فيه ، وأن ضيائه الذي نعيم به إنما هو
من الطبقة الرمادية التي تملأ سطحه وينعكس عليها نور الشمس ، وأنه
خراب يباب ، مملوء بالنجاد والوهاد . وأنه من البرودة بحيث يستحيل
ان يستمر في الحياة على سطحه حيوان ، اذا علم الناس من حقيقة القمر
ذلك ، زهدوا فيه وخف احساسهم بروعته وجماله . فالقرآن الكريم
اذن لم يتحدث من الكون وسننه الا عن ظاهرها ، ولو أراد البحث

عن اعمق من ذلك لخرج عن كونه كتاب هدي ونور ، نزل ليهذب
الانسانية وينسأها من أدرانها الفاسدة والمفسدة . وأما طريقته في العلم
فقد تعرض له حائكا على طلبه واثقا بحملته رافعا شأنهم ، حاصرا خشية الله
بهم ، ولقد استعمل القرآن لفظ العلم في اكثر الاغراض التي يمكن ان
يشمها في العرف الحديث ، من ذلك استعماله لفظ العلم في الثابت القاطع
الذي لا يقبل الظن فضلا عن الشك فقال : « قل هل عندكم من علم
فنتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وإن انتم إلا تخرون ، قل فله الحجة
البالغة » وقال تعالى « وما لهم به من علم ان يتبعون إلا الظن وإن
الظن لا يغني من الحق شيئا » وقال تعالى « وان الذين اختلفوا فيه لفي
شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وقد عبر القرآن بالعلم عن
اليقين في معرض ذكر الحق في كثير من المواضع من ذلك قوله
« إن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم » وقوله « والذين
آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ، ألا ان الذين يمارون في الساعة
لفي ضلال بعيد » وقوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا
من شهد بالحق وهم يعلمون » وقوله « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق
ويعلمون ان الله هو الحق المبين » وكما استعمل القرآن العلم مقابلا للظن

والشك استعمله مقابلاً للهوى والسفه في قوله : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » وقوله : « وان كثيرين ليضلوا أهواءهم بغير علم » وقوله : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » . وقد واهم القرآن بين العلم والعقل مواءمة تجعل العلم حيث يكون العقل ، وتجعل العقل حيث يكون العلم ، فقال : « افتطمعون ان يؤمنوا بكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » وقال : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » واما العلوم التي شملها لفظ العلم في القرآن فلا تقتصر على العلوم الشرعية كما قد يظن علماءؤها ، ولا لفظ عالم يدل على عالم الشرع فقط ، بل قد شمل كثيراً من العلوم حتى التي نسميها عصرية ، فقد سمي صنعة الدروع التي تقي الناس بأس الحرب علماً ، وأنزل على أحد أنبيائه وهو داود بتعليمه هذه الصنعة فقال : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . وقد سمي القرآن علماً ، ما يطلق عليه في هذا العصر اسم العلم الطبيعي في قوله : « إن الله فلق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذاكم الله فاني تؤفكون » ثم ما يطلق عليه اسم الفلك في قوله : « فلق الاصباح وجعل الليل سكناً

والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر « ثم ختم هذه الايات بقوله « قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون » ومن العلم الطبيعي الذي سمي القرآن حامله عالماً قوله تعالى في كتابه : « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لايات للعالمين » وأدهش ماورد في القرآن الكريم بهذا الصدد حصره خشية الله بعلماء الطبيعة الذين فهموا أسرار الخلق ، واستجلوا عظمة الكون فأذعنوا لخالقه خاشعين لجلاله ، وذلك في قوله : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور) وبديهي ان المراد بالعلماء هنا الذين تعلموا ماوردت الآية نموذجاً منه . ومما أطلق عليه القرآن اسم العلم أيضاً الاطلاع على الكتاب والحكمة وذلك في قوله (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة وبعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) ، وهذا الذي أوردناه قليل من كثير . على انه إن كان للعلم أول فإله من آخر ،

وقد بين القرآن ذلك بأوجز لفظ وأروع حين قال : (وفوق كل ذي علم عليم) وأما ترغيب القرآن في العلم وحثه عليه فحسبنا فيه هذا الزمخشري للعلماء ، وجعلهم أولى الناس برضاء الله ، وأحقهم بخشيته حين قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقد اعترف بان المقارنة بين العالم وغير العالم لا تصح ، للفرق الهائل بين العلماء وغيرهم ، وذلك حيث يقول (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .



(١) أبو بكر الصديق

إن في تاريخ الاسلام كل عظيم، وإن في تاريخ الاسلام كل معجز، هذا أمر لم يعد يحتمل الشك، ولكن هل أفاد المسلمون في عصور الادبار من هذا التاريخ قوة؟ هل أفادوا منه سداداً ورأياً، هل سخروه لتفريج النكبات، واستوحدوا حين تأزم الازمات؟ الواقع انه لم يكن شيء من ذلك، بل الواقع المؤلم ان المسلمين اتخذوا من هذا التاريخ الحافل مرقداً وثيراً، سكنوا اليه واطمأنوا فيه، واستمعروا نأعين في ليل طويل، تحوّل فوقهم احلام من البطولات؛ بل احلام من التدين والعلم والخلق وحسبهم من سمو الحياة لهذه الاحلام، وحسبهم من العمل لهذه الذكرى. وليكونوا بعد ذلك بأية حال

إن تاريخنا قوة واي قوة، فلندخره للحاضر، ولننبئه للمستقبل، فالاتجاه يجب ان يكون الى الامام دائماً، والتفكير الجدى يجب ان يكون في المستقبل، ثم لنجمع لذلك كل ما لنا من مقومات : قيم

(١) القيت في ناد سمي باسم ابي بكر الصديق

اخلاقية ، وتدين صحيح ، وبطولة رائعة . لتكون هذه القوة أداة دفع
لأداة جذب ، وعامل تقدم ، لا عامل استنامة وتأخر
لا نريد ان نكون اليوم كالأطفال يستطيعون بأبائهم ويستريحون ،
بل نريد ان نسترشد بهم ، ونستنير بهديهم ، لنكون مثلهم آباء يشهد
نا البناء .

انه لجليل وممتع ان نحتمل بهظائنا وتزين بأسمائهم ، ولكن ألا
يكون أجمل وأمتع وأنفع أن نحاول ايضاً مثل اخلافهم وسيرهم ، أو
أن نبحث عن أسباب قدرتهم التي جمعت منهم عظماء كانوا مركز
اشعاع رفعوا به امتهم الى السماء .

عفواً انا ما جئت لاقول شيئاً من هذا كله ، وإنما جئت ليكون لي
شرف القول في ابي بكر الصديق ، الذي شرفتم ناديه بتسميته باسمه .
ومن أسباب التوفيق ، أن هديتم لهذا الاسم الذي يذكرنا بهدهو
انصر عهد الدنيا وامرعتها واحسنها نتاجاً .

فالصديق رضي الله عنه ليس هو من الذين يؤرخون لتذكر حسناتهم
وسيئاتهم ، وتذكر منافعهم ومضارهم ، ثم يبقى رهن الماضي وإنما
الصديق نموذج بشري خالده . كان ممكناً ان يخطيء فلم يخطيء ، فقد

جمع من اسباب الخير والسمو ما به نعتقد ان في البشر استعداداً كبيراً للخير اذا يسر لهم ما يسر له .

أجل ، لقد احتلت الرسالة الاسلامية قلب الصديق وعقله ، وملكت روحه ونفسه ، ومحضته من الشوائب ، حتى غدا ملكاً يمشي على رجلين ، ولو اتيح للرسالة أن تنقص أحداً لما اختارت غير الصديق ثوباً لها ، فقد بدا فيه شكلها العملي كاملاً قوياً رائعاً ، حتى اضحى يعمل الخير لانه لا يملك الا الخير ، ويتجنب السوء لانه فقد قابلية السوء ، ويهرع الى المعروف بمنزعه كالطبيعة فيه ، وما هو بها ، لا يتكلف في ان يظهر عمله ، ولا يتكلف في أن يحققه ، يسبق الى كل فضيلة من غير ان يدري انه يسبق ،

كان رسول الله (ﷺ) يتمهد اصحابه ، ويسألهم عما ربحوه من الخير سجادة يومهم ، ففي ذات غداة صلى رسول الله (ﷺ) الصبح ، فلما قضى صلاته قال : أياكم أصبح اليوم صائماً قال عمر أما أنا يا رسول الله فقد بت لأحدث نفسي بالصوم وأصبحت مفطراً ، فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم فأصبحت صائماً . قال أياكم عاد اليوم مريضاً قال عمر ، يا رسول الله انما صلينا الساعة

ولم نبرح فكيف نعود المريض؟ فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، أخبروني إن أخي عبد الرحمن بن عوف مريض وجع، فجعلت طريق عليه، فسألت عنه ثم أتيت المسجد.

قال رسول الله (ﷺ) فايكم تصدق اليوم بصدقة؟ قال عمر: يا رسول الله ما برحنا معك منذ صلينا، فكيف نتصدق؟ قال أبو بكر: أنا يا رسول الله، دخلت المسجد فإذا سائل يسأل، وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر، معه كسرة خبز، فأخذتها فأعطيتها السائل، فقال رسول الله لأبي بكر: فأبشر بالجنة، فلما سمع ذلك عمر تنفس فقل هاه فنظر إليه رسول الله (ﷺ) فقال كلمة رضى بها عمر.

وما انتفعت الدعوة الإسلامية بشيء بعد رسول الله (ﷺ) أجدى عليها وأحسن عائدة من أبي بكر الصديق في صدقه وصبره وقوة إيمانه ونفاذ بصيرته، ومن ثم كان أفضل الناس، ما يرتاب في ذلك أحد من الصحابة والتابعين إلا الاقلون.

وفي الحديث: لو وزن إيمان هذه الأمة بإيمان أبي بكر لرجح به. وفي الحديث أيضاً: ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن

فضلاكم بشيء، وثر في صدره . ووقف مرة علي بن أبي طالب على منبر الكوفة فقال . ألا ان أفضل الناس بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . ولقد كان يتعاضم كبار الصحابة ان يُتهموا بانهم يتساوون به أو بأنهم يفضلون عليه .

وقدم ناس من أهل الكوفة ، وناس من أهل البصرة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نزلوا المدينة ، تحدث القوم بينهم إلى أنذكروا أبا بكر وعمر ، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر ، وفضل بعض القوم عمر على أبي بكر ، وكان الجارود بن المعلى ممن فضل أبا بكر على عمر ، فجاء عمر ومعه درته ، فاقبل على الذين فضلوه على أبي بكر فجعل يضربهم بالدرة ، حتى مايتقى احدهم الا برجله . فقال له الجارود : أفق أفق يا أمير المؤمنين ! فان الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على أبي بكر ، أبو بكر أفضل منك في كذا ، وأبو بكر أفضل منك في كذا ، فسرى عن عمر ثم انصرف ، فلما كان العشي صعد المنبر فقال : ألا أن أفضل هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ، فمن قال غير هذا بعد مقامي هذا فهو مفتر ، عليه ما على المفترى .

و كثيراً ما كان رسول الله (ﷺ) يذكر أبا بكر مقتبلاً شاكراً معترفاً بالجميل ، في عاطفة ندية وأخوة الصادقة فيقول : إن من أَمَنَ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ؛ ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر . ويقول رسول الله (ﷺ) أيضاً : ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر فبكي أبو بكر وقال : ما أنا وما لي إلا لك . وقال : ما أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر ؛ واساني بنفسه وماله وانكحني ابنته .

وأما بعد ، فلا نستطيع أن ندعى أنا قلنا شيئاً في أبي بكر ، إلا أنها خطوط ترمز إلى بعض صفاته ومناقبه التي هي كما قال النووي : لا يمكن استقصاؤها ولا الاحاطة بعشر معشارها ، على أنه لا يجوز أن نمر مسرعين دون أن نستوحي من سيرة أبي بكر ما يجب أن يكون مبدءاً لنادر تسمى باسمه ، لنفسح المجال لأبي بكر أن يتجاوز الباب إلى الداخل ، وأن يتجاوز الاسم إلى الحقيقة ، حتى يعيش فينا بروحه ، فيبعث فينا من صفاته ما نحن في أشد الحاجة إليه . فلنذكره دائماً ، ولنذكر أنه ما صنع منه أبا بكر الخليفة الاول وسيد الدنيا بعد الانبياء غير الايمان ، ولنذكر انه عاش لامته ؛ وقسم

جسمه في جصومها ، فاتمشت به وشمرت بالحياة ، كما كان يحب لها
ولنذكر أنه أصاب الناس فيما أمر الله ، وفيما أمر رسول الله ، لا يثنيه
هذل الماذلين ، ولا خوض الخائفين ، وهو في غير ذلك أرفق
الناس بالناس ، وأحدهم عليهم ، وأطيبهم تعظفا ومواساة . اذكروا
أبا بكر الصديق لكل ذلك واعملوا على تحقيقه فانكم لا بد
منتصرون .



عمر بن الخطاب مع عماله (١)

إذا اختر المرء مدارس الدنيا وجامعاتها ومجالس حكمائها وكهوف عبادها ، ونوادي ساستها ، من قديم الزمن حتى يوم الناس هذا ، وأراد ان يعلم أيها خيرُ نتاجاً وافضل عملاً ، وأيها كانت أجزل على الانسانية نفعاً وأطيب ثمراً ، فإيشك في أن هذه المدارس والجامعات والمجالس والكهوف والنواوي ، لو اجتمعت وتعاونت على أن تعمل عملاً واحداً ، وتنتج إنتاجاً واحداً ، لما كان عملها وإنتاجها مماثلاً ولا مقارباً لإنتاج مدرسة محمد رسول الله (ﷺ) وما نقول هذا مجازفين لانا مسلمون ؛ بل نقوله متجردين ؛ ومن شاء فليبحث ، ومن شاء فليقارن ، فلن يرى بعد البحث والمقارنة ، غير ما نعلم وغير ما نؤمن به ونعتقد ، وما كانت مدرسة محمد صلوات الله عليه كغيرها لاتعنى الاباحية خاصة من نواحي التربية النظرية ، بل سلكت السبيل العملي إلى تربية الرجولة الكاملة في الرجال .

(١) القيت في الاذاعة السورية

الرجولة الكاملة من جوانبها كلها ، من عقل وروح وعمل ، مع
تفتيح المواهب ، وإثارة العزائم وتقوية شجاعة الحق ، والغض من شر الباطل
حتى كانت النتيجة العملية لهذه التربية رائعة معجزة ، فإن نيفاً وعشرين
سنة حياة هذه المدرسة ، كانت أبرك على البشرية من قرون طويلة ، بل
كانت أبرك على البشرية من عمرها كله ، ولقد كان ممن تخرج من هذه
المدرسة عمر بن الخطاب ، أعدل حاكم لشعب ، بعد عميد مدرسته
رسول الله ، وزميله أبي بكر الصديق . وإذا ذكر عمر بن الخطاب
ذكر معه اسمى صورة للحكم المثالي العادل . وإذا كانت الفلاسفة
والسياسيون المثاليون قد تفتنوا في تخيل الحاكم النزيه الحازم العادل
واعترفوا بعدم إمكان وجوده بالصورة التي تخيلوها ، فأما عمر بن الخطاب
هو ذلك المتخيل الذي أمكن وجوده بصورة أكل وأتم مما تخيلوه ، فما
ظننا بحاكم سبق في عدله وروعة حكمه خيال أقدر المتخيلين ، ومثال
أبرع المثاليين ، أي عجب واية معجزة هذه المدرسة التي تخرج منها
عمر ، الذي كان يقول : كنت أرعى الغنم بكف من زبيب ،
والآن صرت أمير المؤمنين ، مدالاً على تأثير مدرسة محمد رسول الله على
توجيهه ، ونقله مما كان فيه الى ان أصبح أمير المؤمنين ، عمر الذي كان

في باهليته جافيا ، محبا لذاته ، شديد البغي ، ضيق العطن ، حرج الصدر ،
قد أصبح في الاسلام - وخصوصا في الحـكم - يهتم بغيره ، ويعنى
برعيته ، حتى إنه يشمر بالمسؤولية شعورا جعله يقول : لو أن عنزة على
شاطيء الفرات ماتت جوعا لسئل عنها عمر . فاذا كان في عمر شي من
بذور العبقريّة ، فما في الارض من تربة أصلح لاستنباتها وتعمدها
بالماء والقوة من تربة محمد رسول الله ، وبيئة محمد رسول الله ، ومدرسة
محمد رسول الله . وما نحن الآن بسبيل أن نسرد جوانب عظمة عمر
في الحكم فما يتاح لنا ذلك في هذا الوقت القصير ، ولكن نذكر من
ذلك طرفا من سياسة عمر إزاء عماله ، أو بتعبيرنا اليوم إزاء موظفيه ،
فقد علم بفطنته ودقيق ملاحظته ، أن كل موظف في الدولة له نصيب
من سلطتها يمكنه به ان يستغله لنفسه ، ما لم يراقب مراقبة فعالة من
غير محاباة ولا التماس ، واذا لم يكن المسئول الأول اشراف فعلي
دقيق على عماله أو موظفيه ، أذلوا رقاب الناس ، واستنفدوا خيرهم ،
واصبحوا لهم انصاف آلهة ، بينما ينبغي ان يكونوا اجراء لهم ، يسمون
الى مصالحهم ويقومون بشئونهم ، وما دنا من عمر بن الخطاب في
هذا الباب حاكم ، فقد كان - رغم انه جمع لشخصه مهمة عشرة وزراء

وعشرة محافظين واضعافهم من امناء الدولة واضعاف اضعافهم من كبار الموظفين في دولة حديثة - فقد كان شديد التيقظ ، حديد النظرة لكل موظف يريد ان يستغل مكانته لنفعه المادي ، وما كان عند عمر شيء مثل المال يتمتع به عماله ، ولا فرق عنده في ذلك بين خاصته وقرابته وبني عشيرته ، وبين ابعد الناس عنه ، ولا بين من اشتهروا بالعبقة والزهد من كبار الصحابة ، وبين من تفريهم المادة ، ويطغونهم المال ، فكلهم يمكن ان يزل ، وكلهم لحب الخير لشديد ، فلماذا اذن لا يراقبهم ولا يراقب تصرفاتهم ؟ وماذا عليه ان يلقى الشر من نصف الطريق فيصرعه ؟ وماذا عليه ان يخطأ للامر قبل وقوعه ؟ هكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكن يكتفي بمراقبته في حدود العمل ولا في حدود الوقت المعين للعمل ، بل كان رضي الله عنه يتفحص عامله في جميع احواله .

فانه إن كان في حدود عمله مثال الجد والنشاط والعبقة ، فلمله أن يكون خارج عمله مستهتراً بالبذل ولوعاً بالرفة ، فمن أين يأتي بما يسد له مطالبه الكثيرة ؟ وما كانت الاستقامة عند عمر كما نفهمها اليوم تجزأ ، بحيث يصح أن نعتبره مستقيماً ، مادام في حدود عمله مستقيماً ، فاذا

خرج من عمله فله من حريته الشخصية ما يبيع له ان يفعل ما يشاء ،
 ولو كان ممن يسترون فسقهم وضلالهم في عملهم بظاهر الزاهة
 والعفة والغيرة على المصلحة ، كان عمر اوسع فهماً واشمل نظرة منا في
 هذا العصر ، فالأمانة والاستقامة والدين عنده لا تتجزأ ، وكلها لا تكاد
 تفرق ، فالأمين هو المستقيم ، والمستقيم هو الدين ، والدين هو الأمين
 المستقيم ، وهو الذي يكون في يده وفي خاصته في عمله وفي ظاهره
 وفي باطنه شيء واحد كانت عائشة رضي الله عنها اذا ذكر عمر قالت
 كان والله أحوزياً نسيج وحده قد أعد الامور أقرانها ولنسق الآن
 بعض قصص عمر مع من ظنهم من عماله أنهم قد استفادوا من عملهم
 اكثر مما رتب لهم ، مر عمر رضي الله عنه ببنيان يبني
 بأجر وجبص فقال : لمن هذا ؟ قيل : لعاملك على البحرين ، فقال :
 ابت الدرام الا أن تخرج أعناقها ، فارسل اليه فشاطرة ماله . وكان سعد
 بن أبي وقاص يقال له المستجاب ، لقول النبي (ﷺ) : اتقوا دعوة
 سعد . فلما شاطره عمر ماله ، قال له سعد : لقد هممت ، قال له عمر :
 بان تدعو علي ؟ قال نعم ، قال : اذن لا تجدني بدعاء ربي شقياً .

ولما عزل عمر عامله عن البصرة وشاطره ماله ، وعزل عامله على

البحرين وشاطره ماله ، دعا بعامله على البصرة فقال له . ما جارىتان
بلغني انهما عندك ، أحدهما عقيلة والأخرى من بنات الملوك ؟ قال :
أما عقيلة فانها جارية بيني وبين الناس ، وأما التي هي من بنات الملوك
فأني أردت بها غلاء الفداء قال . فما جفتان تعملان عندك ؟ قال رزقتني
شاة في كل يوم ، فيعمل نصفها غدوة ونصفها عشية ، قال فما مكيا لان
بلغني انهما عندك ؟ قال أما أحدهما فأوفى به أهلي وديني ، وأما الآخر
فيتعامل الناس به . فقال : ادفع اليها عقيلة ، والله انك المؤمن لا تغفل
(أي لا تسرق من الغنائم) أو فاجر مُبِل (أي قوي الحجّة) ارجع
الى عملك ، والله ان بلغني عنك أمر لم أُعِدك .

ثم دعا عامله على البحرين فقال له : هل علمت من حين
أنني استعملتك على البحرين ، وانت بلا نعيم ؟ ثم بلغني انك ابتعت أفراساً
بألف دينار وستمائة دينار ؟ قال كانت لنا أفراس تناجت وعطايا
تلاحقت قال : قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده ،
قال : ليس لك ذلك ، قال بلى والله ، وأوجع ظهرك ، ثم قام اليه بالدره فضر به
حتى أدماه ثم قال : ائت بها قال : احدثبتها عند الله ، قال : ذلك لو أخذتها

من حلال وأديتها طائعاً . أجمت من أقصى حجر بالبحرين يحبي الناس لك، لا لله ولا للمسلمين .

ثم دعا الحارث بن كعب فقال : ما قلص وأعبدُ بعثها بمائتي دينار؟ قال . خرجت بنفقة معي فتَجَرَّت فيها ، فقال . أما والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين ، أدها ، فقال . أما والله لا عملت عملاً بعدها ابداً ، قال انتظر حتى استعملك .

ولما ولي عمر بن الخطاب (رض) عتبة بن ابي سفيان الطائف وصدقائهم عزلة ، تلقاه في بعض الطريق فوجد معه ثلاثين الفا ، فقال : أنى لك هذا ؟ قال : والله ما هو لك ولا للمسلمين ، ولكنه مال خرجت به لضيفة اشتريتها ، فقال عمر . عاملنا وجدنا معه مالا ، ما سييله الا بيت المال .

بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب (رض) وهو على الشام بمال وأدم مع أبيه ابي سفيان ومعه كتاب ، فذهب ابو سفيان بالأدم والكتاب الى عمر واحتبس المال لنفسه ، فلما قرأ عمر الكتاب قال له فابن المال يا أبا سفيان ؟ قال كان علينا دين ومعونة ، ولنا في بيت المال حق ، فاذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به ، فقال عمر . اطرحوه في

الأدم (وهو القيد) حتى يأتي بالمال، قال فارس بن أبوسفیان من أتاه بالمال فأمر عمر بإطلاقه من الأدم، قال فلما قدم الرسول على معاوية، قال له: رأيت أمير المؤمنين أعجب بالأدم؟ قال نعم، وطرح فيه أباك. قال ولم؟ قال جاءه بالأدم وحبس المال. قال: اي والله، والخطاب لو كان اطرحه فيه.

هذا قاييل من كثير، فخلافه عمر ابن الخطاب كلها كذلك، وكلها انتصار للحق والورع والعفة، على الباطل والتساهل والشره، ولم تكن سياسة عمر ذات ألوان أعماهي لون واحد. وسياسة الألوان سياسة الضعف، وسياسة اللون الواحد سياسة القوة: لاقوة الحديد والنار، بل قوة الحق وقوة الايمان وقوة الشخصية، وما بث هذه القوى فيه إلا دينه، ومن العبث ان نبحث عن قوة تضارع قوة عمر، في أي عصر يكون مصدرها غير الايمان بالله، ومدرستها غير مدرسة محمد رسول الله.



العدالة الاجتماعية (١)

أما بعد، فقد كثر حديث الناس في هذا العصر، عن العدالة الاجتماعية، التي يريدون بها حل المشكلة الازلية، مشكلة الفنى والفقر، مشكلة التفاوت الهائل بين الطبقات، عامل كادح، وفقير يموت ولا يجد عملاً، وفلاح مستضعف، كل أولئك يبذل ما به حياته وعصارة وجوده لينال من الطعام والكساء ما يحفظ وجوده، فلا يسكاد يبالغ ذلك إلا بشق الأنفس، في وقت يفرق صاحب العمل أو مالك الأرض بالرفه والنعيم، من غير أن يلقيا بالآل لشقاء الأشقياء وقناء الفقراء، وهذا - لا شك - من قسوه الإنسان وطبيعة الظلم فيه.

ومرتين في التاريخ ارتفع صوت في العدالة الاجتماعية، مرة في رسالة محمد رسول الله (ﷺ)، ومرة في هذا العصر. أما الحل العملي في هذا العصر، فهو حل آلي مادي لا ينظر إلى المشكلة من ناحيتها الانسانية والروحية، وأما الحلول العمالية التي أتى بها الاسلام، فقد نظرت

القيت في مسجد عيسى باشا خطبة جمعة وأذيعت

الى هذه المشكلة الكبرى من جميع أطرافها . لم تنظر اليها نظرة مادية
خالصة ، ولا نظره روحية محضة ، ولم تلاحظ الفردية ووحدها بأن يعمل الفرد
ما يشاء ، ولا ناحية المجموع بأن يذوب فيه الفرد ذوباً تاماً مطلقاً ، بل كانت ملاحظة
لذلك كله . ولحي لقد رمدى صلاحها وإصلاحها ، فلنشر إشاعة سريعة الى
الوضع المالى في العرب قبل الاسلام . لقد كانوا في فوضى مالية فاسدة ، ونظام
اجتماعي أفسد ، الغني يتحكم بذي الحاجة تحكماً شاذاً ؛ يُقرضه على الربا ضعافاً
مضاعفة ، ويستبد بجميع ما تملك يده ، يحال المدني على القروي ، والقروي على
البدوي ، في سلب سلعه بالخنس ثمن . البراعة في كسب المال ، انتشار
وعنف وظلم ونهب الى غير ذلك ، مما يظن انه من المستحيل إصلاحه ،
فلما جاء الاسلام قضى بأسرع ما يتصوره عقل ، على هذه الفوضى ،
وسار بهم في نهج واضح وصراط مستقيم ؛ بدأ فحسم أمراض التمدي
في الحقوق ، فحرم الربا والغصب والاحتيال ، كما حرم جميع وسائل
جلب المال بغير الطرق الواضحة المشروعة ، ثم وضع الاصول العامة
الثابتة ، فأقر حق الملكية الفردية ما دامت في الحدود التي شرعها الله ،
فان لم تكن كذلك فليست ملكاً ، وليست محترمة احترام الملك ، ولو
ادعى مدع ملكيتها من أجيال ، ولقد أقر حتى التملك استجابة لفطرة

الانسان الاصلية ، ولكنه إن أباح له ذلك ، فقد فرض في ماله حقاً
آخر ، ليس أقل شأنًا في نظر الاسلام من حق الملكية الاصلية ، هذا
الحق هو حق الفقراء والمساكين « وفي أموالهم حق معلوم للسائل
والمحرور » وذلك أن المال في نظر الاسلام مال الله ، آتاه عبده وكالة ،
ليحسن التصرف فيه ، يقول تعالى في صدقات المكاتبين « وآتوهم من مال
الله الذي آتاكم » ويقول « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين
فيه » . فإذا كان المال مال الله وجب على من آتاه إياه أن يراعي فيه ما
أوجبه عليه ، فإن لم يفعل وجب على أولي الامر أن ينفذوا بالقوة أمر
الله ، كما فعل الصديق بحربه أهل الردة حين منعوا الزكاة وقال : لا قاتلن
من فرق بين الصلاة والزكاة . فالزكاة اذن ليست تفضلاً من الغني على
الفقر ، ولكنها حق كامل ، فمن أداه فقد نفذ وصية الله فيما وكاه عليه ،
ومن لم يؤده فقد خان أمانة الله . أما النسبة التي أوجبهها الاسلام في
أكثر الاموال وهي ربع العشر فهي أقل نسبة واجبة . والامام اذا اضطر
بسبب انتشار فقر ، او استعداد لحرب او لعمران ضروري ، ان يفرض
زيادة على قدر المصلحة ، وكلاهما واجب عثم على كل مسلم ملك الذناب .
اما التطوع بالانفاق فلا حد له ، بل كان بعض الصحابة يرى في إدخار

المال إنما مستدلاً بظاهر قوله تعالى : « والذين يكتزون الذهب والفضة
 ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب اليم يوم يحمى عليها في نار
 جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم
 فذوقوا ما كنتم تكنزون » وأخذاً ايضاً بقول النبي (ﷺ) وفعله ، فقد
 روى أبو ذر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله (ﷺ) يوماً نحو احد ،
 وأنا معه ، فقال يا أبا ذر فقلت لبيك يا رسول الله فقال : الا كثرون
 هم الاقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا ، عن عينيه وشماله
 وقدامه وخلفه وقليل ما هم . وها هو (ﷺ) يدركه الأجل وتأخذه
 الشدة قبل الموت ، فيذكر أن هناك ستة دنانير أو سبعة في حوزته ،
 فيأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ثم تأخذه الغيبوبة ويشغل أهله به عن
 إنفاذ امره فاذا صحا من غيبوبته كان أول ما يقول قوله (ما فعلت تلك
 الذهب ؟ فاذا علم أنها لم توزع ، أخذته الغضب فطلب من عائشة
 إحضارها ووضعها في كفه ، وهو يقول : « ما ظن محمد بربه لو لقي الله
 وعنده هذه » ثم تصدق بها جميعاً فهذا الكمال في حقه (ﷺ) ، أما
 التشريع فعلى المال ربع العشر ، ما لم يكن هناك ضرورة الى أكثر ،
 ولو أخذنا بنظرية أبي ذر بصورة تشريعية لمطلنا فريضة الزكاة . فاذا

كانت الزكاة ركنا من أركان الاسلام . فان الضمان الاجتماعي ركن أيضا ، وما الزكاة إلا أكبر جزء في المدالة الاجتماعية ، وكون الزكاة ركنا ، يظهر اهتمام الاسلام بمعالجة المشكلة الكبرى ، مشكلة الغنى والفقر ، معالجة عملية ناجحة ويظهر اعتبارها من أصوله الاصلاحية الكبرى .

لاحظ الاسلام العدل الاجتماعي في نظام الزكاة والحث على الصدقات ، فإذا فعل في توزيع الاراضي ؟ ان حق الملك في الاسلام حق مصون ، لا يجوز التعدي على حرمة ، اذا ثبت ملك المالك له بصورة مشروعة لالبس فيه ولا مكر ولا خداع ، واذا ثبت للمالك حسن التصرف والانتفاع ، لان الملكية العينية لا تكون متحقة بدون حق التصرف والانتفاع ، هذا شأن الاراضي المملوكة ، أما الاراضي التي تأخذها دولة اسلامية عنوة ، أي بحرب وقتال - ونظيرها ما يسمى اليوم باملاك الدولة - فهذه الاسلام فيها نظرة اشتراكية فانه وزعها على فقراء المسلمين ينتفع بها أكبر عدد ممكن منهم ، يفعل ذلك خشية أن تكون دولة بين الاغنياء ، أي خشية ما يسمونه اليوم الاقطاعية ، تستأثر بها طائفة خاصة من الاغنياء ليزيدوا غنام غنى ثم

يورثونها إلى مثلهم ، ولا ينتفعون منها إلا بقادير ضئيلة ويبقى
 معظمها معطلا بورا ، بينما يكون من حولها من الفلاحين والفقراء من
 هو بحاجة إلى قوت يومه . وهذا صريح في قوله تعالى : « ما أفاء الله
 على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى
 والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما
 آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد
 العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون
 فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » .
 وسبب هذه الآية ان بعض المسلمين أراد أن يقطعهم النبي (ﷺ)
 أرض بني النضير ، فرفض ووزعها على فقراء المهاجرين ، لذلك قال
 تعالى : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم . أي أن
 أرض بني النضير هي لهؤلاء الفقراء المهاجرين . وهذا التصرف يقرر
 مبدأ في الاسلام صريحاً هو كراهة أن تكون الأرض دولة بين
 الأغنياء وحدهم دون أن يكون للفقراء منها أي نفع ، أما عمر بن
 الخطاب رضي الله عنه ، فقد كان تصرفه في أرض سواد العراق وأرض
 الشام مبنيًا على هذا الأساس ، وهو الخشية من أن يتداولها الاقطاعيون

إلا إنه لم يقسمها كما فعل النبي (ﷺ) ، بل وقفها على المسلمين زيادة في الاحتياط ، لئلا تقع في أيدي المستأثرين ، وهو رأي معاذ بن جبل . فان عمر لما قدم الجابية أراد قسمة الأرض بين المسلمين ، فقال له معاذ : (والله اذن ليكونن ما نكره انك ان قسمتها اليوم صار الربع العظيم في أيدي القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد والمرأة ، ثم يأتي بعدهم قوم آخرون يسدون في الاسلام ، سدا ، وهم لا يجدون شيئا فانظر امرا يسع اولهم وآخرهم . فصار عمر إلى قول معاذ . ففعل النبي عليه السلام في قسمة خيبر بين فقراء المهاجرين ، واجتهاد عمر في وقف السواد والجبابة ، كل ذلك خشية ان تكون الأرض دولة بين الاغنياء وخدام ، كما قال تعالى . لئلا يكون دولة بين الاغنياء منكم ، وخلاصة القول : ان الاسلام عمل للعدالة الاجتماعية ما لم يعمله أحد فهو مع احترامه للملكية الفردية احتفاظ للجماعة احتياطا دقيقا ، واحتياط ألا يكون شقي ولا محروم .

صور من العدل في الإسلام^(١)

المفروض ان الانسانية كلما اوغلت في المدينة ، كان ذلك أدعى الى تحقيق العدل واشاعته بين الافراد والجماعات والامم ، وأدعى الى التدقيق في تطبيقه . فافد كان من المؤلف في الجماعات البدائية ان يسطو فرد على فرد ، وشعب على شعب ، لا غاية لهما إلا الظلم ، والاستئثار بالخير والسعة . ولما بدأ الناس يشعرون بخطورة هذه الحال ، تخض شعورهم مع الايام عن وضع قوانين يحفظون بها حقوقهم ، ويضربون عن طريقها على يد الظالمين ، ولكن القوانين والتشريعات ، ان حفظت حقوق الناس في الظاهر فما استطاعت ان تقطع من النفس البشرية جذور الشر والظلم . وقد دعا قال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجدد ذا عفة ، فله لمة لا يظلم
لذلك جاءت وصايا الحكماء القدماء والديانات السماوية القديمة ، بان

(١) القيت في الاذاعة السورية

يحرص المرء على العدل من نفسه ، لا أن يُحمل عليه حملاً ، خوفاً من رقابة القانون أو خشية من بأس الحاكمين . والشريعة الإسلامية لم تكن باسئرافها الواسعة الدقيقة التي احتاطت لكل شيء حتى الاحتمال ، بل زادت على ذلك بأن عمدت الى ترويض النفس الانسانية وتهذيبها ليجل العدل من سجيتها محل الظلم . وما نظن ان شريعة من الشرائع أو قانوناً من القوانين دقق في العدل الى الحد الذي جاء به الاسلام .

وحادثان في القرآن تكفيان دليلاً على ذلك . كان هناك رجل من الانصار يقال له طعمه بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث ، سرق درعاً من جاره يقال له قنادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى الى داره ، ثم خبأها عند رجل من اليهود ، يقال له زيد بن الحسين ، فالتصمت الدرع عند طعمه ، فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم ، فقال أصحاب الدرع لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره ، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق الى منزل اليهودي ، فاخذوه منه ، فقال اليهودي : دفعها إلي طعمة بن أبيرق وهو السارق ، وشهد له جماعة من اليهود . وجاء بنو ظفر وهم قوم السارق الى النبي (ﷺ) ، وسألوه ان يجادل عن صاحبهم

طعمه ، اى يدافع عنه ويحامي ، ضد اليهودي ، واقدم رسول الله (ﷺ) - حين لبسوا عليه - ان يعاقب اليهودي بقطع يده ، لولا ان الوحي جاء من عند الله بقوله : « إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » . نزلت هذه الآية بهذه اللمحة الحازمة لتبلغ النبي (ﷺ) الى ان الكتاب الكريم نزل ليحكمي الناس بعضهم من بعض ، وليحكم به النبي بما أراه ربه ، لا ينصر مسلماً على يهودي إذا كان الحق بجانب اليهودي لذلك جعل الله ميل النبي (ﷺ) الى الانتصار للمسلم ومعاوية اليهودي مما يحتاج الى الاستغفار ، فقال في تمام الآية : « واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً » ولم ينته تنبيه الله تعالى لتنبيه هذه الآية ، بل عقبها بآيات يبين فيها خطر مجادلة النبي (ﷺ) عن طعمه وقومه لأنهم يختانون أنفسهم فقال : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ثم تحدث القرآن عن خشية طعمة وقومه من فشو أمرهم بين الناس . يقول تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضي من القول وكان الله بما يعملون محيطاً » ثم يلتفت القرآن الكريم الى بعض المؤمنين الذين جادلوا عن طعمه وقومه مؤنباً بقوله « ها أنتم

هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة . أم من يكون عليهم وكيلا » ثم اتجه القرآن الى طعمة حائكا له على التوبة والالابة والاستغفار ، مطمئا له بالغفران بقوله تعالى : « ومن يعمل شوا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحاما » ثم نبه طعمة الى أن من يكسب اثمًا فانهما يصيب به نفسه وحدها بقوله تعالى : « ومن يكسب اثمًا فانهما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما » ثم يحمل حملة عنيفة على كل من يجترح سيئة ثم يلصقها ببريء ولو كان يهوديا بقوله تعالى : « ومن يكسب خطيئة أو اثمًا ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانًا واثمًا مبينا » ولم يكف الكتاب الكريم بهذا كله بل النفث الى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، يدل بفضل الله عليه ان عصمه من الضلال ، ومن الانزلاق الى نصرة الباطل ، وضياح الحق في هذه الحادثة ، إذ قال بعدها « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء » وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك . أي من هذه الحادثة - ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما . إذ نجاك ان تكون من الظالمين . ثم ختم هذه الآيات البينات مُعْرِضًا بطعمة إذ أظهر عداوه للرسول الكريم

وارتد عن الاسلام ، ثم أنذر بجهنم كل الظالمين ، وكل من يشاقق الرسول ، وكل من يتبع غير سبيل المؤمنين بقوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » . هذه حادثة مثالية نادره ، كان اليهودي من فئة غادرة ماكرة ، أصاب النبي وصحابته منها كل اعتداء وكيد ، فكان من المتوقع والمألوف ، بل من المستحسن في العرف أن تقتنم مثل هذه الحادثة للنيل من عدو كائد ، ولكن القرآن كان في هذه الحادثة مبدأ سامياً مجرداً عن كل داعية ذاتية ، وبمجرداً عن كل انتقام ، رضي بكل قوة أن ينتصف للذي . وبعان براءته ، وإن يلاحق المسلم الذي ثبتت إدانته ، غير مبال في سبيل احقاق الحق والانتصار للعدل ، بأن يرتد المسلم ، وبأن لا يسلم اليهودي ، فسمو المبدأ فوق الاشخاص ، وهذا سر من أسرار خلود هدي محمد (ﷺ) . وأما الحادثة الثانية فهي أدق حادثة في تصوير العدل ، ذلك أن الناس اعتادوا - إذا اختصم فني وفقير في أمر - أن يعطوا الحق بداهة للفقير ، احساساً منهم بضعفه وحاجته وعجزه عن ظلم الفني ، فيحكمون بعاطفة الشفقة والرحمة ،

وبكيلون للغنى الشتام من غير تحقيق ولا تمحيص ، يتبعون في ذلك
 أهواءهم . مع ان العدل لا يعرف الانتصار للفقير لانه فقير ،
 ولا للغني لانه غني ، بل يعرف العدل للعدل . وقد جرى للذي (عليه السلام)
 قريب من ذلك ؛ فقد روى السدي ان فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي
 (عليه السلام) فكان صغوه (أي ميله) مع الفقير ، يرى أن الفقير لا يظلم
 الغني ، فأنزل الله في كتابه « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط
 شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو
 فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا
 فإن الله كان بما تعملون خبيراً » في هذه الآية قوله تعالى : إن يكن
 غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، إشارة إلى هذه الحادثة ، فالله تعالى يذنبنا
 إلى أن ننظر إلى العدل المطلق ، لا أن ننظر إلى فقير من حيث فقره
 وإلى غني من حيث غناه ، فالله أولى بالغني والفقير منا فأنوكل امرهما
 إليه . ولنتصرف إلى العدل المجرد عن أي هوى أو أية رغبة . وفي
 هذه الآية غير هذا صور من العدل رائعة حقاً ، فاولها قوله تعالى :
 كونوا قوامين بالقسط ، فقوامين لفظ مبالغة ، أي قائمين بشدة وقوة ،
 بالقسط أي بالعدل ، وكل عدل في الحقيقة يحتاج إلى هذه الشدة

والقوة في القيام به ، لأن في العدل محاربة الهوى ومحاربة المبطلين .
والصورة الثانية ، قوله تعالى « شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين
والاقربين » أي كونوا شهداء لله . ففي هذه الكلمة يتحدث الكتاب
الكريم عن الشهادة ، والشهادة من مؤيدات العدل إذا كانت لله ، وهنا
أيضاً يرتفع المبدأ عن الاشخاص وليكونوا أقرب الناس اليه . فليقصد
المرء بشهادته الله وحده ، وليؤدها على وجهها ولو تناولت نفسه ، او
الوالدين او الاقربين ، وختم الله هذه الآية بقوله : « وان تلوا اي يلوي
الشاهد لسانه الى غير الحق ، او تعرضوا اي عن الشهادة فتكتمونها ،
فان الله بما تعملون خبير » ، وهذا تهديد لاوائك الذين يلوون او يمرضون ،
وخير ما نختتم به هذا الحديث ، هذه الآية الكريمة الدالة على أن
يتمسك المؤمن بالعدل ويتجنب الظلم ولو مع عدوه وهي قوله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم
شان قوم (اي ولا يحملنكم بنص قوم) على الا تعدلوا ، اعدلوا هو
أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون .

محمد المجاهد الأول (١)

نحتفل اليوم ، ويحتفل معنا المسلمون في أقطار الأرض ، بذكرى مولد رسول الله محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولو تخالسى العالم جميعه عن تأثير وراثاته وعصبياته ، لاحتفل معنا في هذه الذكرى من شرقه الأقصى إلى غربه الأقصى ، على اختلاف ملله ونحله وآرائه ، وعلى اختلاف منازعه وبيئاته وأهوائه ، ذلك لأنه الرسول الذي لم يبعث لنفسه ولا لبني جنسه وحدهما ، وإنما هوهبة الخالق العظيم ، منحها الانسانية كلها ، ليكون الرمز الحقيقي لأعظم ما تحلم به وتطمح إليه ، من السمو في الروح والعقل والقوة والهداية ، وليكون مائق للعقريات الصالحة الموزنة في عظماء الرجال ، في تسلسل التاريخ إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم ، وليكون مثالا عمليا لأقصى ما يستطيعه البشر من العدل والحق والرحمة والانسانية ، فما المسلمون إذن أجدر بالاحتفال بمولده من أية أمة في

(١) الفيت في صالة سينما دنيا في الحفلة التي اقامها معهد النجاح بمناسبة

المولد سنة ١٣٧٠

أي قطر ، ففي مولده عليه السلام ولدت حرية الانسان تصحبها العدالة
 بين أفرادها ، فليس هناك فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على
 أسود ، ولا لقوي على ضعيف ، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى ، وفي
 مولده عليه السلام ولدت معاني الشرف والاخلاص والبر والايثار
 لوجه الله وحده ، لا لجرم مغنم أو دفع مغرم ، وفي مولده عليه السلام
 ولد النور والحياة لأنهم ما كانت تعرف من البقاء إلا المطعم والمشرب ،
 وفي مولده ولد التشريع الخالد الذي كان أساسه أن الانسان أخو
 الانسان ؛ ليست العلاقة بينهما آية مادية ، بل روحية توجبها الأخوة
 ويرعاها العطف والاحسان ، وفي مولده عليه السلام ولدت القوة التي
 تدافع عن الخير وتحمي الرسالة ، ، وإذا كنا لانستطيع أن نلّم هنا
 بأطراف سيرته عليه السلام فلنتكلم بإيجاز عن مولد هذه القوة ، فإن
 حاجة العرب والمسلمين اليوم إلى القوة كحاجتهم إلى الحياة ، فكل
 حياة في هذا العصر لاتحميها قوة ، فهي موت ، ولكنه غير شريف ،
 وليس عبثاً أن خاطب الله المسلمين بالهجة العزم قائلاً في كتابه :
 « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو
 الله وعدوكم » ، فهذه الآية الكريمة تشير إلى أنه يجب على المسلمين أن

بعدوا من القوة منتهى ما يستطيعون ، فان يكن في مقدورهم أن يبلغوا من القوة أكثر ما بلغ أقوى الامم ثم قصّروا عن بلوغها يكونوا آثمين ، ما في ذلك شك ، ولو أن المسلمين عملوا بهذه الآية الكريمة لكانوا اليوم في العالم قوة يحسب حسابها ويرهب جانبها ، بل لكانوا قوة تحقق التوازن الدولي وتنشر السلام في الأرض ، ولكنهم حين أغفلوا هذا الجانب العظيم جانب القوة طمع فيهم الطامعون ، فكانوا لذلك سبباً من أسباب التنازع والحرب ، فالجرب إنما يشيرها ضعف الضعفاء ، ولا يحوها . نل تكافؤ القوى . فحمد عليه الصلاة والسلام مع انه رسول سلام ووثام ، ومع أنه يحمل من المبادئ العظيمة والأخلاق الرفيعة والقرآن الكريم ، ما يلين به القلوب المتعجرة ، مع ذلك ، علم أنه لا يتاح له أن يبشر بالسلام والاسلام ، حتى يكون معه من القوة ما يناسب رسالته ، ووثق أن كل حق لا تؤيده قوة ، فهو أليه الضعفاء وتسليه الحق ، وقنع بأن اليهود والمواثيق والذمم لا يخشى أحد اقترحام حرمانها إلا إذا كان بجانبها من يحميها ويحاسب على خرقها .

جرب عليه السلام في مكة حين جاءته الرسالة أن يستعمل في قومه لسان

الحكمة والموعظة الحسنة، مع ما يحمل إليهم من الرسالة التي نقلتهم فيما بعد الى أن كانوا خلاصة البشرية، جرب ذلك ثلاث عشرة سنة فلم يصب نجاحاً يذكر في بث الدعوة، فهاجر الى المدينة يتكلم مع من آمن، حتى أوجد قوة أشعل بها بعد قليل حرب بدر التي أصلى بنارها كفار قريش الذين اضطروه أن يخرج من بلده، فكانت هذه الغزوة التي خرج اليها النبي بنفسه أول نصر له ولأتباعه، وما زال لهذا الانتصار الفضل الاكبر على المسلمين، وما غرّ النبي هذا الانتصار فاستنم ولكنه عمل جاهداً لتنمية قوته، فانه ليس من العقل استصغار العدو مهما يكن صغيراً، حتى كان عنده بعد ذلك من القوة ما روع بها ملوك الفرس والرومان، وحتى جازله أن يعان بعد ايجادها أن « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » فالجهاد في الاسلام من أصل الدين، بل هو عبادة من أكبر العبادات، ففي التنزيل قوله تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » وقوله تعالى: « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » وقوله تعالى: « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر

والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وثلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، درجات منه ومغفرة ورحمة ، وفي الحديث عن رسول الله (ﷺ) قال : « لَعُدَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رُوحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ « أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ : مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وَقَالَ : تَضُمَّنُ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرَسُولِي فَهُوَ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِّمَ ، لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مَسْكٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سِرِّيَّةٍ تَعَزَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يُجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوَدِدْتُ أَنْ أُغْزَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْتُلَ ثُمَّ أُغْزَوْا فَأَقْتُلَ ثُمَّ أُغْزَوْا فَأَقْتُلَ . هَذَا هُوَ الْجِهَادُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَفِي سَبِيلِ حِمَايَةِ دَعْوَتِهِ ، وَأَوَّلُ وَاضِعٍ لِقَوَانِينِ الشَّرَفِ وَالْمُرُوءَةِ

والرفق في الحروب ، ولئن حث اصحابه وأتباعه على الجهاد في سبيل الله، لقد عرفهم أيضاً أن الجهاد جهادان جهاد أصغر وهو اقتحام الحروب لغايات نبيلة ، وجهاد أكبر وهو جهاد الأهواء والمطامع النفسية ، فانه لا تنفع شجاعة الابطال على الاعداء إن لم يقرن بها التغلب على الأهواء ، فكلم من شجاعة مع هوى أودت بأمم وحضارات ، هذه ناحية واحدة من نواحي عظمة رسولنا الكريم ، نحن في أشد الحاجة اليها والعمل بها، هي الجهاد بفسيمة الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر. وليعلم المسلمون الآخر يرجي لهم ولا أمل ولا حياة ولا عزة ولا استقرار ، إلا بأن يقفوا آثار رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، لا بالشكليات وحدها بل في كل شيء فهو الذي كان من قبل سبب سلطانهم على العالم كله ، وسيكون إن جعلناه قبلتنا وإمامنا سبب سيادتنا وكرامتنا من بعد ، فصلى الله عليه صلاة تامة تعطيه مؤله في بعث أمته مملوءة بالحياة والفضيلة والقوة .



المين والنظام (١)

أول مظهر من مظاهر التقدم في أمة من الأمم ، نزوعها إلى النظام في أعمالها كلها ، وأول مظهر من مظاهر الضعف والتأخر ميلها إلى الفوضى ، ولا يشق المرء على نفسه في معرفة أبرز شيء في تكوين قوة الأمم ورفعة شأنها ، وسمو حضارتها ، فانه النظام قبل كل شيء ، ومهما تحنل الأمة ببساطة واذكيا وعلماء ، ثم تفقد روح النظام فليست على شيء . فما هو النظام وما هي الفوضى ؟ النظام أن يضبط كل انسان أعماله ويرسم لها خطة مستقيمة يسير عليها حياته ، مع التقيد بالعقل العام عقل الجماعة . أما الفوضى فهي أن يسير في أعماله حياته على غير هدى ، وكيفما اتفقت له ، لا يعرف ماذا سيعمل بعد ساعة ، ولا ينتهج في كسبه ولا في تربيته ، ولا في علمه نهجا معيناً ، ويضيق ذرعاً بكل ترتيب وكل نظام ، ويكره أن يطالعه أحد بملاحظة على تنسيق ، أو يرسم له هدفاً أو غرضاً . هذه هي الفوضى

(١) القيت في الاذاعة السورية

وذلك هو النظام . فأما الذين يؤثرون في حياتهم الفوضى على النظام ، فأولئك الذين امتن الله عليهم بالعقل فاهملوه ، وعيشت بهم الأهواء ، تصرفهم حيث تشاء . وما خاق الله العقل في الانسان إلا ليتهم له ما نقصه من الغريزة الكاملة التي في الحيوان ، وما أراد أن يعوض له عن نقص الغريزة بالعقل إلا ليمنحه ارادة يسير بها على حسب رغبته منفرداً ومجتمعاً ، فن لم يستعمل عقله في تنظيم أعماله والسير بها فقد نقصت غريزته بالخلق ، ونقص عقله بالتخلق ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون على أبداع نظام وأدقه ، وربطه جميعاً بأسباب ومسببات ، فليس فيه ما لا يسير وفق قدر مقدور من أدق الذرات إلى أعظم الكواكب ، إذا كان الله قد خلق خلقه على هذا النسق من الاحكام والنظام ، فن المستحيل ان يرسل رسله ، ويوحى بكتبه بما يناقض النظام في التكوين ، بل يجعل نظامه التام في هذا الكون نموذجاً ظاهراً ، يدل الناس على ان يسيروا في حياتهم على النظام ، ولو آمن الانسان النظر الى نفسه ، ورأى تركيب جسمه ، ودقة صنعه ، ثم فطن إلى النظام الدقيق الذي يجري فيه ، لمله ذلك على تنظيم أعماله وعدم تركها نهياً للمصادفات ، ولقد

أرسل الله تعالى رسله ليسيروا بقومهم على نحو منظم حتى في عبادة ربهم ، فالله سبحانه لا يقبل عبادة عبده ، حتى تكون منظمة محكمة ، فالصلاة مثلاً لها ، وقتها وفروضها وشروطها ، فان أتى بها المتعبّد قبل وقتها ولو بثوان ، او نقصها فرضاً أو شرطاً ، لم تقبل منه ، ولو استغرق فيها المتعبّد خاشعاً خاضعاً ، فإذا كان الجسم لا يحيا إلا بالروح والروح لا يسكن في جسم خلا من الرأس ، فروح العبادات الخشوع فيها ، ورأسها نظامها ، ويلاحظ النظام في صلاة الجماعة ايضاً ، يتقدم الامام فيتبعه المأمّون بحركات متناسقة وأعمال متناسبة ، وكم حض النبي (ﷺ) على تسوية الصفوف حتى قال : « ان الله لا ينظر إلى الصف المعوج » وبالطبع ليس يريد الله منا التنظيم لنفسه ، بل يريد لنا ان نطبع نفوسنا عليه ، وليس التنظيم من العبادات في الصلاة وحدها ، وإنما هو في كل ما يتعلق من الدين بسبب ، من عبارات ومعاملات ومعتقدات . فإذا كان القانون ينظم تصرفات الانسان الظاهرة ، فالتشريع الآتي ينظم تصرفاته الظاهرة والباطنة ، فيدخل معه في النية والخطوة تخطر والفكرة تمر ، فيتعهد له ذلك كلّها وينظمه ، وإذا أراد امرؤ أن يعرف أي أمرين من امور المعروف خير عند الله ؟ فليعلم أن

أدناها الى التنظيم اقربها الى الله ، وأدناها الى الفوضى أبعدهما عن الله ، وهناك عند بعض الناس شعور بأن الامر الذي يترك فوضى ، هو الامر الذي فيه البركة ، مع أن البركة والفوضى لا يجتمعان ، والانسان يشمر ببركة العمر وبركة الزمن إذا وزع أوقاته في أعماله توزيعاً عادلاً وأنجز كل مهمة له في وقتها ، وإذا ترك الأمور تعالج نفسها من غير ضابط ولا نظام ، فهناك محق البركة وضياح الوقت وتحكم الهوى ؛ فالدين والنظام توأمان ، وما يكره الدين مثل الفوضى . واستحكام الفوضى في الشرقيين من ضعف إرادتهم لا من تدبيرهم ، ولو تمكن الدين حقاً في نفوسهم ، لاتبعوه في كل وسائله وغاياته ، ولو تبعوه لكانوا مثلاً من النظام والاجادة ، ولكن ضعف وازع الدين في النفوس وضعف الادارة ، تغلب الاوهام والشهوات ، كان سبباً في انتشار الفوضى .

ألا فليعلم الناس جميعاً إن الدين والعقل يأمران بالنظام ، ولا حيلة لمن تمسك بشرعة الدين أو بشرعة العقل في التخلص من ربة النظام وعمر الفوضويين عمر هباء ، لا يشمرون لانفسهم ولا لاهليهم ولا لمواطنيهم ، فلتؤمن الحكومات بتوجيه الناس وجهة صحيحة منظمة ،

في آدابهم وتربيتهم وعلمهم وتجارتهم ، وفي كل ما يخصهم من قريب أو بعيد ، ولترسم لهم ما ينبغي أن يتجهجوه من الحياة المنتظمة ، فما أشد حاجتنا لذلك ، وما أفقرنا للنظام بدخل البيت والمدرسة والسوق والطرق والدوائر ، بل يدخل المساجد والمعابد ، بل ما أفقرنا إلى النظام يدخل قبل كل شيء إلى نفوسنا ، فقد نرى من الناس من يباهي بأنه لا يخضع لنظام ، ولا يتقيد به ، ليبدو أنه فوق النظام وفوق الناس . وليؤمن الحكومات علماء الدين وعلماء الاجتماع والأدباء والصحفيون ، فكل العالم المتمدن أنظمة عامة في أنديتهم وطرقهم وبيوتهم ومطعمهم ومشربهم وتلاقيهم ، فإن لم ننظم في سلك النظام ، فما نحن بامة جديرة بالاحترام ، تعز بحاضرها كما تعز بإضيها ، وإنما همل ، لا نزعنا دين عن فوضى ، ولا تجذبنا مدنية إلى نظام . ألا فإدع دعاة الدين إلى النظام في جميع الأعمال الخاصة والعامة الدينية والدنيوية وليعلموا أن الدين بأمر به ويحث عليه ويدعوه .

الامانة (١)

قال تعالى :

« إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » .
وقال النبي عليه الصلاة والسلام : أدّ الامانة الى من اتمنتك ولا تخن من خانتك . وقال : الامانة تجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر .
وقال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

الامانة: خلق إيجابي ، لا يستحق ان يوصف بها ، إلا من سنحت له فرصة الخيانة من غير ضرر يلحق به ، فأظهر المناعة وقوة الارادة، والعفة المبذبة على السمو في النفس والروح . ولو أن انساناً اعتزل الناس ولم يزاول عملاً لما جاز أن يسمى أميناً ، لأن الأمين من فتح له باب الى الخيانة قليلها أو كثيرها ، فأمن، والامانة من الاخلاق الثامة التي لا تصلح للتجزئة، فكما لا يجوز أن يكون المرء نصف صادق؛ ولا نصف

(١) القيت في الاذاعة السورية

غفيف ، لا يجوز ان يكون نصف أمين . فنصف الأمين خان ،
 والأمين بالقليل دون الكثير خان ، والأمين بحال دون أخرى خان .
 والامانة خلق وجداني ، يوجدته ويزكيه ، التربية الروحية السامية ، التي
 تستوحى من أشرف منازع القدين . فن كان أميناً برقابة القانون ، أو
 برقابة الناس ، أو بخوف من عاقبة فليس بأمين ، فالامانة تفيض من
 النفس الزكية الطاهرة فيضاً . لا تضطر اليها اضطراراً بقوة السلطان ،
 ومن كانت أمانته بقوة السلطان فأمانته مجلوبة بالرياء والخوف ؛ إذا
 انكشفت عنه رقابتها ، ارتد الى الخيانة مسرعاً ، والامانة من أعظم
 الكنوز واحسنها عائدة على صاحبها ، فاذا وثق الناس بامانة انسان ،
 كانت له هذه الثقة ذخراً في الدنيا قبل الآخرة ، وما حرص الناس على
 شيء حرصهم على الرجل الامنة ، حتى إذا وجدوه تجاذبوه من كل
 مكان ، فرفعوا ذكره ، ووضعوا وزره ، وأفاد غنى طيباً ، ورزقاً غير
 محسود عليه . وما ادخر (ﷺ) لتبليغ دعوته ونشر رسالته شيئاً أثنى
 ولا أنفع من الامانة ، فقد اختبره قومه عن غير قصد صغيراً وشاباً
 وكهلاً ، ثم توجوه بلقب الامين ، قبل أن يعرفوا انه نبي مرسل ، فلما
 جاءت الرسالة لم يجروا أحداً وإن كان ألد الخصام أن يتهمة بالخيانة أو

التضليل ، فاستسلم لدعوته من تجرد عن هواه وابتغى الخير والحق ،
وأعرض عنه من غلبت عليه الشقاوة وأسلم أمره لشيطانها وهواه .
والأمانة من أخلاق القوة ، لا قوة النفوذ والسلطان ، ولا قوة الجاه
والغنى ، بل قوة في النفس تنفي عنها ضعف الانقياد الى حب الذات
الذي يورد التهلكة ، حين يمتنى صاحبه بالمغنى من أقرب طريق وأوعرة
وأخبثه ، ولو أحب الخائن ذاته عن بصيرة وتعقل ودين ، لسلك بها الى
المغنى الطيب طريق السلامة والكرامة والأمان . وليست أمة من
الأمم ولأمة من الملل إلا والأمانة عندها المكان الاعلى ، ولقد حضت
عليها وجعلتها ميزاناً للدلالة على مدى تأثير المرد بالمبادئ السامية ، ولم
يغفل الاسلام قرآنه وسنته أمر الأمانة والحض عليها ، ولا أمر الخيانة
والنهي الشديد عنها . ولقد جعل القرآن الامانة من صفات المؤمنين ،
وجعلت السنة الخيانة من صفات المنافقين ، فقال تعالى : « قد أفاح
المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » الى ان قال « والذين هم لاماناتهم
وعهدهم راعون » وقالت السنة في صفات المنافقين « آية المنافق ثلاث ،
إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » ولم يكتف
الكتاب الكريم بأن جعل الامانة من صفات المؤمنين ، بل عرض في

سورة ثانية لانواع الخيانة واستوعبها، ونفى ما ظاهره منها، عرض ذلك عرضاً موجزاً دقيقاً في قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » جعل الخيانة ثلاثاً : خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة بعضنا لبعض . قد نفهم كيف تكون خيانة بعضنا بعضاً ، فكيف تكون خيانة الله ؟ أعظم خيانة لله جحده وإنكار وجوده، وتكذيب رساله، بعد أن خلقنا ورزقنا وأفاض علينا من نعمه ، ومن خيانة الله تعطيل فرائضه التي أوجبها علينا ، والتي لولاها لكننا هملأ قد فقدنا الرعاية ، وما الرعاية إلا الامثال لاوامر الله واجتناب نواهيه . واما خيانة الرسول ، فأكبرها تكذيبه وإنكار رسالته بعد أن دلت الدلائل الظاهرة على صدقه وأمانته ، ومن خيانة الرسول ، الانصراف عما شرع لنا عن ربه إلى ما شرع غيره من خلقه بعد اعترافنا بأنه أعظم رمز للتفوق العبقري في الأمة العربية، بل في في الانسانية ، مع ما يتصف به عليه السلام من اسمى ما يمكن أن يتحلى به الانسان من كمال ، وفي الآية قوله تعالى : « وتخونوا أماناتكم » وقد جمعت هذه الجملة الصغيره ، كل ما يتعلق بأمانة بعضنا لبعض ، فأمرنا الله بهذه الآية بمراعاة كل ما يسمى أمانة ونهانا عن كل

ما يسمى خيانة ، وما من عمل من أعمال الانسان الذي يهدش مع الجماعة الا والامانة ضرورية لبقائه واصلاحه ، والخيانة داعية لمحقة وفساده . ويختلف عظم الامانة وقيمتها ، وجرم الخيانة وفضاعتها ، بمقدار ما يتعلق بصاحبها من حقوق المؤتمنين ، فأعظم الامانات ما حملها كبار المسئولين في كل دولة نحو رعيتهم وأقربها أمانة الانسان لنفسه . وما بينهما درجات تملو فيها قيمة الامانة حتى تالحق بالامانة العظمى ، وتهبط حتى تدنو من الامانة الصغرى ، ولكي يستطيع الانسان أن يعرف قيمة الامانة التي حملاها ، ينبغي له أن يعلم موضعه ، وما يتصل بأمانته من حقوق غيره ، فاذا علم ، حاسب نفسه ، وأشهد ربه واستقبل دينه وضميره ، ثم عاهد الله ، ليقوم من مصلحة المؤتمنين على خير ما يرجون ، فاذا كان رئيساً في دولة ، نهض في مصلحة المواطنين الداخلية والخارجية ، المادية والمعنوية ، الدينية والدنيوية ، السياسية والاجتماعية والعلمية ، كما يرغبون أو كما ترغب أكثرتهم الساحقة ، فالحاكم العادل الأمين ، من وفر لرعيته أكبر مقدار ممكن من السعادة بأقل مقدار ممكن من الألم ، من غير تفريق في المعاملة بين أمير وحقير ، ولا بين كبير وصغير ، ولا بين بلد وبلد ، ولا بين قرية وقرية ، وإذا كان موظفاً

فالأمانة لديه أن يقوم بواجبه فيها خير قيام، في نطاق ما حدده من وقت وعمل، وأن يكون أصحاب المصالح لديه مواسيه، لا يُبمد المرأه لا ناصر لها، والفلاح المستضعف، والفقر العاجز، ليقرب القوي المتنفذ، كما لا يجعل الوظيفة أداة استغلال، ينتقم فيها من العدو، ويقرب فيها الصديق. فكل من مطالبته بحقوقهم سواء، وكلهم في التكليف بالضرائب سواء. كل هذا من أمانة الوظيفة، ومن أمانتها البارزة أيضاً لا تطمح عينيه لمال قل أو كثر إلا ما سمح له به القانون، وإلا كان خائناً. وويل لأولئك الذين يعملون من وظائفهم طبقاً للأثر غير المشروع، وإذا كان تاجراً فمن الأمانة أن يكون صادقاً في بيعه وشرائه، ناصحاً للناس رفيقاً بهم، لا يستغل المصائب العامة والحروب، ليدخر أقوات الناس وضرورياتهم وما يحتاجون، ليغنى على حساب نكبة المعوزين. والشركة في التجارة أمانة، وما يحق البركة في الشركة مثل الخيانة، وتصدق الخيانة ولو على قرش واحد يستأثر أحد الشريكين به دون شريكه، وإذا كان عاملاً فالأمانة منه لصاحب العمل أن يكون في غيابه مثله في حضوره، وإذا كان صاحب عمل فتقتضيه أمانة عماله أن يحنو عليهم حموه على أولاده بالرفق وابن الجانب

وزيادة الأجر . هذه سن الأمثلة البارزة ، ولا تقدر على استقصائها ،
إذ الأمانة كما قدمنا تتعلق من كل فرد بنصيب على قدره ،
فهناك أمانة الآباء للأبناء ؛ أن يعلموهم ويهذبوهم ، ويتعهدوا دينهم
وأخلاقهم ، ويلاحظوا تربيتهم النفسية والعقلية ، وأمانة الأبناء للآباء ،
أن يبروهم ويحترموا أبوتهم ويحازوهم على ما قدموا لهم من خير وجهد
في سبيل اسعادهم ، وأمانة الجار للجار ؛ أن يرعى حرمه ، ويتجنب إيذائه
ويستجيب للهفته ، ويفرح لفرحه ويشاركه أحزانه ، وأمانة الأستاذ
لتلاميذه ، أن يبذل جهده في تعليمهم وتشقيفهم وتخليقهم ، من غير تعامل
عليهم واحتخاف بهم ، وأمانة التلاميذ لأستاذهم أن يقدروا جهده ،
ولا ينسوا فضله ؛ ويحترموا احترام الآباء ، فالآباء إذا كانوا سبب
وجوده فالأساتيد سبب كونه موجوداً نافعاً . هذه هي الأمانة
فن اتصف بها فقد أَرْضَى الله وضميره والناس ؛ ومن أَعْرَضَ عنها أو
عن بعضها فقد خان الله وضميره والناس ، وتختلف الخيانة على قدر الأمانة ،
فالأمانة العظمى تقابلها الخيانة العظمى ؛ والأمانة الصغرى تقابلها الخيانة
الصغرى وما بينهما دركات تتفاوت سوءاً ، فليضع امرؤ نفسه حيث
شاء ، فالأمانة شرف وعز وجنة ورضوان من الله ، والخيانة ذل ونار
وسخط من الله .

مفاتيح الخير ومفاتيح الشر^(١)

قال رسولنا العظيم صلوات الله عليه وسلامه :

ان من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وان من الناس ناساً مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه .

يلتفت المرء حوله، فيصادف من إخوانه وعشرائه وذوي قرباه ومواطنيه من أعداء الله للخير وأهله للمعروف، فلا يصدر منه إلا الخير والمعروف، ولو حاول غيرهما لارتد سريعاً إلى طبعه النقي ونفسه الطيبة. ومنهم من غرس في طبعه الشر وكن في غريزته السوء واستولى على توجيه عقله وعواطفه البغي والضرر، فلو التمس الناس له طريقاً من الخير لاجزه السير فيها، وإن مضى فيها قليلاً ظالم ثم سقط فكم من خير شاع بين الناس وانتفع به كثير منهم كان مفتاحه رجلٌ خير

(١) القيت في الاذاعة السورية

وكم من حادثة سوء كان يمكن أن تطفأ ، أوقد نارها رجل شر حتى اشتعلت فالتهمت القريب والبعيد ، وأتلفت كل شيء أنت عليه .
فالخير ثمرة لشجرة طاب أصلها وطابت تربتها ، فأنت أكلها نافعة مباركة ، والشر ثمرة لشجرة خبت أصلها وخبت مغرسها فأنتجت العصاب والملقم ، وأذت من تنكر ومن تعرف ومقياس الخير من إنسان الخير ، ومقياس الشر من شيطان الشر ، يقدران بما لكل منهما من خطر في مجتمعه . فكما ارتفع خطر الرجل في قومه عظم خيره أو عظم شره ، واقرن اسمه بالخير إن كان من أهله وبالشر إن كان من أهله ، وما يندفع الناس فتخفي عنهم حقائق الاعمال ، حتى يتسوا من الشر وهو خير ، ويتهللوا فرحين بمظهر الخير وهو شر ، ولئن كان شيء من ذلك لن يستمر طويلا ، ثم لا تلبث الحقائق ان تنهض تدفع ركام الاضاليل عن عوائقها ، وتبرز قوية تضع الامور في نصابها ، وترد لكل ذي حق حقه ، ولكل ذي باطل باطله .

والخير والشر في الامم يتسابقان ، فيسبق الخير وينمو ويتوسع في أمة قويت نفوس افرادها ؛ وكانت صحيحة من العمل مهذبة مترفة عن الدنيا ، ويكون ذلك اذا هيئت البيئة الصالحة للطفل والناشيء

والمرأة والرجل ، ويسبق الشر في أمة هزلت نفوس أفرادها وانتابتها
الأوبئة الاجتماعية حتى امتازت بالكيد والحقد ونضح منها الفساد
والشر مخنارة او غير مخنارة .

والمرء في حالة طفولته طاهرُ النفس نقي من الادران ، وأما
يفسد دخاته ويغير فطرته ابواه والمجتمع الذي يعيش فيه ، فاذا حضنته
أم تربت على الخير ، وغذته اياه مع لبنه ، وأشرف على تربيته أب ينزع
إلى الخير ويغرسه في نفسه ، ثم أوى في تعلمه الى مدرسة تُتغنى بتزكية
نفوس طلابها ، وتُتغنى بأخلاقهم وتربيتهم ، أكثر مما تعنى بعلومهم ،
وتكون بهيئتها التعليمية والادارية مثالا رائعا من الخلق الرفيع ، ومن
حب المعروف والميل الى الخير بأقوالها وافعالها ، ثم تنزه في حياته
ومعاشه عن الامتزاج بمن ليست سيرته في الحياة ولا منهاجه إلى
الخير ، إذ اتمَّ كل ذلك لانسان ما ، فقد يضمن له أن يكون رشيدا
خييرا كريم المنزع بعيدا عن الضر والاذى ، لا تحمده نفسه بشرو ولا
ينال احداً منه ما يسوء .

أما اذا عاش في طفولته في كنف أم هي شدُّ انجذابا الى الشر منها
الى الخير ، وتعمده أب هو أشد إمعانا في الشرور وسوء الخلق ، ثم

محمد في تعلمه الى مدرسة هزيلة في توجيهها ، تعلم الضعف في الارادة والخلق ، وهي بهيأتها جميعها لاتبالي بالخير ولا تحض عليه ، ثم اندمج في مجتمع مملوء من الشر والفساد ، فمن أين يرجى للطفل ان ينشأ على حب المعروف والالتذاذ بفعله ؟ ومن أين يتسنى له أن يصير مفتاحا للخير مغلاقا للشر .

على أن الشر لا يلقن في أكثر الاحوال تلقينا ، ولا يعلم تعليما ، وإنما يقتبس اقتباسا ويؤخذ تأسيا وتأثيرا ، والنفوس البشرية تنزع إلى الشرور أكثر مما تنزع إلى الخيرات ، لأنها بحكم ماديتها تنجذب الى الارض ، والارض مالم ينظر فيها الى السماء ويتعلق بنواميسها ، خالية من الروح ، وإذا خلت الارض من الروح فلا يرجى منها الخير . ولا يفصلنا عن النجا قنا الممنوي بأرضنا الخاسرة ، ويصلنا روحا ومعنى بالسماء إلا أن تتضافر الجهود ويتحد الاتجاه في الاصلاح الخاقي والروحي ، داخل البيت من الابوين ، وداخل المسجد من الواعظين ، وداخل المدرسة من المعلمين ، وداخل الدولة من الرؤساء والمرؤسين .

فاذا تعاون كل هؤلاء على بث روح الخير بين الناس ، وعلى تنظيفها من خبث الشرور ، كان الامل عظيماً في تحقيق حلم المدنية الفاضلة التي

كان قديماً يصورها ويشرحها الحكماء والفلاسفة ، دون أن يبلغوا بها الى الواقع ، واقد حقق رسولنا الاعظم (ﷺ) هذا الحلم حلم المدنية الفاضلة والعصر الذهبي حقيقه عملياً باسمى مما كان يتصوره الحكماء ، حقيقه في عصره وعصر صحابته من بعده ، وتابعيهم وتابع تابعيهم . ذلك لانه احتاط الامر فسمى تهذيب المجتمع من جميع اطرافه ، ولم شعثه وصبغه صبغة واحدة ، ولم يدع مجالاً لآفة تؤثر في عمله فاسد على ما أصلح ولولا رسول الله (ﷺ) وما أتى به من عند الله من رسالة الاسلام ، ولولا تحقيق هذه الرسالة ، أثرها الخالد العظيم ، لضربنا يد بيد يائسين من تحقيق اصلاح الانسان ، وحمله على الخير ، ولكن رسول الله (ﷺ) بعث فينا رجاء قوياً في امكان ذلك الاصلاح ، وذلك بنجاح دعوته وتأثير رسالته ، حين أخرج للناس قوما كانوا بدائيين ، ثم أصبحوا سادة الناس مرؤة وشرفاً وديناراً ، قد اندمج بعضهم ببعض اندماجاً كلياً ، حتى لينعم أحدهم بنعمى غيره كأنها نعماء ويتنفس ببؤس غيره كأنها بؤساء .

وما ذلك إلا لعناية الرسول (ﷺ) باصرم ، واتجاهه تهذيبهم

تجاهها عملياً ، خالياً من كل مالا يمكن أن يكون ، مما بما كس الفطر
الاصلية أو يصطدم مع الفرائض الثابتة ، وما زال بهم عليه الصلاة والسلام
حتى محصهم مما كان تامل بهم من فردية مضرّة وشر مستحكم ، واستبدل
بهما غيرية ينسى فيها أحدهم نفسه ليقوم بمعاونة أخيه وتقديم الخير له
وابعادهما عما يضره .

ورسول الله (ﷺ) الذي عالج من أوائك ما عالج ، حتى صنع منهم
هداة البشر وسادة الناس ، ما يزال فينا حياً بشريعته الرائعة وأقواله
الحكيمة . وما تنفك هذه الشريعة وهذه الأقوال أروع ما خلف رسول
لامته ، من تنظيم يخاطب به العقل والارادة والعدل ، ومن حكم
يخاطب بها القاب والروح ، ويملاها رحمة وحناناً وإثارة وخيراً . ولقد
حث على الخير حتى جعل على كل عضو من الانسان صدقة ، أي جعل
على كل عضو صغير أو كبير ، عمل خير ينبغي أن يقدمه كل يوم ،
وعدد عليه السلام من جملة الصدقات أي من جملة أعمال الخير : الكلمة
الطيبة يقولها المرء لأخيه ، وإزالة الأذى عن الطريق ، وإن تمنين
إنساناً فتحملته على دابته . عدد عليه السلام كثيراً من هذا الذي يراه
الانسان ضئيلاً من أعمال الخير ، وهو عند الله عظيم تشجيعاً للانسان

على ألا يهمل عملاً من الخير ولو رآه ضئيلاً ، فرب خير لا يكلف فاعله شيئاً ، يكثر أثره كبيراً عند من قدم إليه ، ولذلك رغب الرسول بفعل الخير ، وأبان للناس ثوابه الجزيل في الحديث : « من قضى ل أخيه المسلم حاجة كان له من الأجر كمن خدم الله عمره » وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ) « من يكن في حاجة أخيه يكون الله في حاجته » وفي الحديث أيضاً عن رسول الله (ﷺ) « غفر لامرأة مومسة مرت بكاب على رأس ركي كاد يقتله العطش فنزعت خفها فاوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فقفر لها بذلك » .

هذا المعروف كان له هذا الأجر وهو مع حيوان ، فما بالنامع انسان ولا يضيع الله أجراً على خير مهما بضوّل في الدنيا قبل الآخرة ، كما لا يضيع عقاباً على شر مهما بضوّل في الدنيا قبل الآخرة أيضاً قال الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » وختاماً يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره » .

المسجد في الاسلام^(١)

قال تعالى في كتابه الكريم :

« ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ، أما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . »

أيها المسلمون لقد اضحى المسجد اليوم كالمسلمين أنفسهم ، فقد من حياته كل شيء إلا مظاهر العبادة التي يتقاص ظلها أيضاً ، وليس بعيد الزمن الذي لا يؤم المساجد فيه إلا الشيوخ ، ثم يأتي بعده حين تصبح المساجد فيه آثاراً ، يقال فيها كانت هذه مساجد يؤمها المسلمون لاقامة صلواتهم ، ان استمر الحال على هذا المنوال لاسمح الله .
ان تاريخ المسجد في الاسلام هو تاريخ الاسلام نفسه ، وليس

القيت في مسجد عيسى باشا ونقلتها الاذاعة السورية .

من شي، أحسن إلى الاسلام وهو دين ، وأحسن اليه وهو دينا وسياسة
وخلافه ، وأحسن اليه وهو علم ، وأحسن اليه وهو قوة وشجاعة
وحرب ، مثل المسجد . ذلك ان المسجد عند المسلمين ليس هو معبدا
فقط بالمعنى الذي تفهمه الملل كلها من معابدها ، وانما المسجد عندنا
نحن المسلمون كديننا ، فديننا ليس دين طقوس وعبادة فقط ، انما هو
هو دين ليس فيه الا ما يصلح الانسانية ويهذبها ويسمو بها ، فقد
تكافأت فيه القوى ، وتقاتلت فيه المطالب ، فهو دين إلى جانبه دنيا ،
وعبادة يؤاخيها العلم ، وزهد من ورائه سمي ، وعدل في رحمة ، وشجاعة
في غير ظلم ، وقدرة في سياج من حكمة . عقل يسيطر على الهوى ،
وزوج تسيطر على العقل ، ودين يسيطر على الروح ، هذا هو الاسلام .
ولقد كان المسجد في عزة الاسلام أخصب حيوية واكثر حركة
وأمرع بركة ، من كل مكان ، كان في عهد رسول الله (ﷺ) نادي
القوم ، لا يحزبُ المسلمين أمرٌ ولا تعوزم حاجةٌ ولا يتطامون إلى
معرفة ، ولا يعقدون لواء الحرب ، ولا يرفعون راية لصاح ، الا وينادون
الى المساجد ، يسمعون في هذا كله فصل الخطاب ، من رسول الله
(ﷺ) ثم لا يختلف اثنان الا وقاضيه في المسجد ، ولا يغيب عن

أحد حكم في فقه ، أو بعسر عليه مراد من آية ، أو يجهل من أمور دينه أو دنياه ما هو بحاجة اليه ، إلا ويجسد ما يريد في المسجد ، ففي المسجد على عهد رسول الله (ﷺ) وعهد خلفائه الراشدين كل ما كان المسلمون يصبون الى تعلمه أو علمه ، وتطور المسجد زمن بني أمية حتى كثرت فيه حلقات العلم والوعظ والذكر والقصص ، فحلقات المجتهدين من التابعين الذين يستنبطون من كلام الله وكلام رسوله أحكام دينهم ، وحلقات للمختلفين في المذاهب والآراء ، وحلقات للقصاص دهاة الدولة . فهذه حلقة الحسن البصري امام التابعين وشيخ الواعظين ، وتلك حلقة واصل ابن عطاء وعمر بن عبيد ، وهناك حلقة عطاء بن ابي رباح ، امام الفقه والحديث . أما في العصر العباسي فقد كان المسجد آية من الآيات ، كثرت في هذا العصر العلوم ، وتشعبت نواحيها ، وكثرت المذاهب ، وتشجرت فروع الحديث ، ونهضت العلوم العربية وآدابها ، ودخل علم التوحيد ومعه الفاسفة . وما كان لكل ذلك من جامعة تجمع شمل هذه الالوان ، من المعارف والعلوم والعبادات والثقافات ، غير المسجد . فالمسجد كان معبدا وجامعة ، معبدا كما ينبغي أن تكون المعابد الاسلامية ، وجامعة كأحسن ما يتصور العقل

الحديث من جامعات ، ولقد كانت المساجد في الاندلس أوسع مجالا
لأنواع العلوم حتى العلوم التي نسميها عصرية وحديثة ، فعلوم الطبيعة
والكيمياء والطب والنجوم وما إلى ذلك ، علوم جامعاتها المساجد .
واقدر كان يؤم هذه المساجد من الاقطار الأوروبية الايتالي والفرنسي
والانكليزي ، ليستفيد هذه العلوم من علمائها المسلمين ، كما نفعل نحن
اليوم حين نرتاد الغرب نلقف علومه ، وما له علينا في ذلك من فضل ،
فانه إنما يرد ديننا عليه ، ولقد كان ممن قصد مساجد قرطبة ليأخذ علوم
المسلمين من شيوخها بابا روما نفسه الملقب باسم سافستر الثاني ، فانه
لما عاد يحمل العلوم التي كان الغرب يستذكرها اتهموه بالسحر ، وهمشوا
بقتله ، لغرابة ما كان يحمل اليهم من العلوم ، ولا تذهب في مصر الجامع
الازهر ، فكيف أخرج من علماء ومن كتب ومن مباحث منذ الف
سنة الى يوم الناس هذا ، وخلاصة القول إن أمة من الامم لم تكثر
فيها العلوم والثقافات والكتب كثرتها في الامة الاسلامية ، حتى
ليستغرب المستعربون أن يكون لمؤلف واحد من الكتب ، ما لو قسم
على ايام حياته كلها لكان نصيب كل يوم من أيام حياته ما يجاوز الثلاثين
أو الاربعين ورقة كتابة فقط . وما هذه الثروة الهائلة من العلم إلا

نتاج المسجد . والمسجد في ذلك رمز عظيم للإسلام الذي هو دين يحمل
راية العلم والعقل قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال
« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : « ولا تقف
ما ليس لك به علم » .

هذا أيها المسلمون هو المسجد في تاريخكم، كان موثلا للناس جميعا
على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم وآرائهم ، كل يجد فيه بغيته ومتعته
وأنسه ولذته ، من علم وموعظة وذكر وفائدة ، حتى إذا دنا وقت
الصلاة وأذن المؤذن لها ، وقف الناس جميعا يؤدون صلاتهم ، وراء امام
واحد ، قد نسوا كل شيء إلا العبادة والخضوع لحالقيهم تعالى . وما
كان يقوم بإمامة المسلمين وخطبة جمعهم إلا خليفة المسلمين ، أو من يفيبه
الخليفة من أولى هذا الشأن من كبار العلماء ، وما كان يستنكف عظماء
الناس وعليتهم وموظفو الدولة من الحضور الى المساجد ، بل كانوا
قدوة الناس قلما تفوتهم جمعة أو جماعة ، فالمسجد كان حياة دعوة الدين
من وجوهها كلها . لذلك كان كما حدث عنه النبي (ﷺ) بقوله :
« أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها » وكما
قال رسول الله (ﷺ) « من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة »

فعمارة المساجد ليس هو بناءها بالحديد والتراب وزخرفتها فقط . إنما هو أيضا بهمارتها المعنوية بالصلاة والعبادة والعلم ، وماعمارتها أيضا إلا بالاقبال عليها والدعوة لها . والسعي لتكون أكثر فائدة وأفضل غايه واكمل نورا ، وفي الحديث « من غدا إلى المسجد أرواح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أرواح » .



الفش (١)

ما يؤخذ الله أحداً بشيء كما يؤاخذه بذنب يقترفه بالتمدي على حقوق غيره ، ذلك ان المعصية التي يرتكبها المرء ولا يجاوزه ضررها الى غيره ، فتلك معصية قبيحة أن يغفرها الله وان أخلص صاحبها في التوبة ، فتركها مسرعاً ، وندم على فعلها ، وعزم على أن لا يعود ، والله أرحم من أن يصر على تعذيبه وقد أخبت له وأناب اليه مستسلماً طائعاً . أما المعصية التي تمتن فيها حقوق الناس وتكتسب بايذائهم ، فتلك معصية لا يغفرها الله حتى يسترضى صاحبها من مسهم بايذائه ، أو نالهم ضرر بسعيه . فالله يفار على خلقه من أن يصيب بعضهم بعضاً بسوء . والسوء أنواع : فمن الناس من يعتدي على غيره بقتله أو أخذ ماله ، ومنهم من يعتدي عليه بلسانه أو يده ، ومنهم من يعتدي عليه بخداعه والعبث بحريته ، ومن أشد أنواع الاعتداء : الفش ، وهو موضوع حديثنا لهذا

(١) القيت في الاذاعة السورية

اليوم فالغش نوع من الخداع المعقوت به، يخفي الغاش العيب في سلعته ويزينها بما ليس فيها، ليموهها على المشتري، فينخدعَ ويجلب إلى داره بضاعة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله المذاب، وما يقوم بهذا الغش الا من غابت عليه الشقاوة فأثر المال على المروءة والدين والشرف، على انه لو فكر من يغش الناس قليلا لعلم انه خسر الدنيا والآخرة، وفي الحديث «مر النبي (صلى الله عليه وسلم) برجل يبيع طعاما فأوحى اليه جبريل أن أدخل يدك في جوفه فأدخل يده فاذا هو مبلول فقال النبي (ﷺ) ما أراك إلا قد صنعت خيانة في دينك وغشا للمسلمين» ومن أفضع الغش، أن يغش البائع من استسلم لمعرفته وشرفه وذمته، فخدعه وخانه، وأفضع منه ان يستسلم الى البائع الضعيف الذي لا ناصر له من امرأة أرملة، أو شيخ عاجز، أو صغير لا يفقه شيئا. ثم يبيعه أردأ ما عنده خادعا ما كرا غاشا، وما من عمل أو صنعة أو تجارة الا ويدخلها الغش بانواعه كلها من مضر وأشد ضررا. قال الم والمدرس والموظف من جهة، واصحاب الصناعات والمتاجر وبائعو الاقمشة ومختلف الاطعمة والفواكه والاحوم من جهة ثانية. كل اولئك يمكن أن يدخل الغش الى أعمالهم، بل المؤسف ان يكون الغش غالبا على

أعمالهم ، بل المؤسف حقاً أن يجهد الإنسان في التفتيش عن الناصح الذي لا يغش أو على الأقل الذي لا يغش إلا قليلاً ، فلا يكاد يجده ، وهذه ظاهرة خطيرة تدل على ما انحدرت إليه شعوبنا من انحلال الخلق والدين . وقد عاينا كيف يمنع الناس عن أن يغشوا إخوانهم في الدين ، وإخوانهم في الإنسانية ، خوف الله ، والمحافظة على هذه الأخوة التي لا يعد لها ربح ولا مال ، عند من لا يعيشون لبطونهم وملذاتهم فقط ، عند من يشعرون أن في الاستقامة والنصح والأخوة والخلق الرفيع والوجدان الطاهر والضمير النقي ، من اللذة والسعادة والمتعة ، مالا يوازيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وتطاول البنيان والأنعام والحراث على أنه من الخطأ والوهم أن يظن الغاش أنه يغشه يكسب مالا والناصح يخسر مالا ، بل الأمر بعكس ذلك ، فالناصح يكسب المال الوفير الحلال ، والغاش يربح سيخط الناس وهو إن يكسب مالا فذلك مال قن ألا يبارك له فيه ، مال حرام يسلك إلى الغاش سبيلاً خبيثة لثيمة ، مملوءة بأشواق البغي والعدوان . فليحذر المرء أن يخدعه الشيطان ويزين له غش الناس طمعاً بالربح ، ومن فعل فقد انغش للشيطان واستجاب لندائه وغش الناس . فكنا يحب الناصحين

ويسمي اليهم ، ولو بعدت أما كنهم ، ويكره الغاشين وينفر منهم ولو جاورتنا اما كنهم ، حتى الغاش نفسه يحب الناصحين ويثني عليهم ، ويكره الغاشين ويذمهم ، وهذه الحال من الغاش هي القاضية ، فليجلب إلى نفسه الأمانة بالسوء ما يحبه من الناصحين ، ليكون محبوباً من الناس ومن ضميره ، ولو رزق الانسان ان ينصف نفسه ولا ينظر اليها نظرة الرضى ، لبرىء من كثير من الآثم ، ولا استراح واغتبط ونعم . ومن انصافها ان لا يعامل الناس الا بما يحب ان يعاملوه به ، فان رضى عن غش الناس له - وحاشاه أن يفعل - فليغش الناس وان غضب وصب عليهم ألواناً من السخط والكره والغیظ والآثم ، فليحذر الغش ، وليعلم أنه مصيبه من ذلك ما أصاب غيره . وكل ذي عمل أو تجارة أو صناعة عالم أو جاهل صغير أو كبير ، رجل أو امرأة يعلم كيف يكون الغش ؛ ويعلم الطريق للخلاص ان أراد . والطريق للخلاص من الغش أن يعمل بما شرع الله له من البيان للناس والتوضيح لهم ، فلا يخفى عنهم عيباً ولا يستر قبحاً . وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ) « المسلم أخو المسلم ، ولا يخل لمسلم باع من أخيه بيعاً فيه عيب الا بينه له . واذا كان لا يخلو مكان للبيع والشراء من أن يحتوي على الجيد والردىء وما بينهما ، فليعرض البائع أو

الصانع او العامل ما عنده، وليصفه وضمناً صادقاً، ولا يتوهم أن لا يبيع
الجيد، ويبقى الرديء لديه مطروحاً، فلكل من الجيد والرديء وما
بينهما مشتركون بحسب قدرتهم على دفع الثمن. أما أن يبيع كل ما عنده
باسم الجيد ليزداد ربحه، فهذا يزداد من سخط الله أضعاف ما كسب
من مال، وشر من هذا أن يعتمد الى الغش عمداً أو يصنعه بيده. ولكل
تجارة أو صناعة أو عمل، آفة من الغش تكون في الذروة من الضر
أحياناً، وتكون عادية أحياناً أخرى، وسنعرض الآن لضرب المثل
بعض آفات الغش لبعض الاعمال، فمن آفات الغش عند التجار أن يقسم
تاجر الاقمشة ان هذا القماش من بلد كذا وهو في الحقيقة من بلد آخر،
وأن يخفي فيه بعض السقط ليبيعه على أنه لا عيب فيه، وأن يحلف
بكل محرجة من الايمان ان هذا أجود شيء وجد في الاسواق، والواقع
غير ذلك. أما تجار المواد الغذائية فلا تسلم عن كثرة ما يدخل الغش
الى بضائعهم، فالسمن العربي يغش بالسمن النباتي، وزيت الزيتون
بغيره من الزيوت، والسكر والرز والبن وغير ذلك. أما اللبن
والاجبان فيعيا الانسان ان يحمد بعد التفتيش حليماً غير ممزوج بماء،
وأما اللبن الرائب والجبن، فإن يظفر الانسان بكثرة اهون عليه من

أن يظفر يلبن او جبن غير مسلوب النعمة ، إلا ان يسعى إلى منابعه في
القرى ، وحتى هذه قد تسرب اليها داء الغش ، بعد ان كانت لا تعرف
إلا النصح ، ومن آفات تجار بائعي الخضر والفاكهة ان يدس في الميزان
أو في الوعاء أردأ ما عنده مما يستحق احياناً ان يوضع في صناديق
القمامات ، وشر من ذلك ان يستأمنهم المشتري على إرسال أجود
ما عندهم فيجدوا ذلك أفضل فرصة لنفاق أخبث الفاكهة وأشنع الخضر ،
وكثيراً ما يمجبك عرض الفاكهة ، فاذا حاولت أن تشتري حذر أن
تم يدك ثم أعطاك ما يخفى ، وياويل ما يخفى ، ومن آفات الغش في
الصناعات البسيطة كالخبازة والقصابة ما ينسينا كل غش ، فقد أذاقنا
أكثر الخبازين في أيام الحرب الصاب والمقم ، وأذاقونا خبزاً فيه من
العناصر غير القمحية ما لله به عليم ، فدخل في محتوياته الرماد والتراب
والنخالة والوسخ والزيوان ، وهؤلاء أصلحهم الله وألهمهم رشدهم
يستغلون الازمات العامة ليضيقوا على الخلق ، ويضروهم في عدم انضاج
الخبز وتخليطه وعدم النظافة فيه ، في سبيل أن يجنوا من وراء ذلك
الربح الوفير ، وما أقدر مالا هذا سبيله ، وما اظن الله سيدهم
يفلتون من يده في الدنيا قبل الآخرة ، اذا أصرروا على ما هم فيه من

الاضرار والعبث بحياة الفقراء والمساكين والارامل واليتام . واما
القصابون فهم هم من لدم آدم الى اليوم ، لهم في الغش أساليب مبتكرة ،
وعند التقي منهم كل اللحم يسمى لحماً ، ولو أراد أن يأخذ لبيته لحماً
لتغيرت قاعدته ولـكان لها وجه آخر . والمؤلم من هؤلاء ان يصبوا
غشهم على المرأة لناصر لها ، وعلى المؤمن الذي لا يسهه وقته ان
يراقبهم ، وما نستطيع الاستقصاء فـكل صنعة ولكل تجارة ولكل
عمل غش يبالغ احياناً الى حد الاضرار بالبليغ بذوي الحاجات ، وما يذنبني
ان ننسى غش المعلم الذي يتقاضى أجره على التعاليم ثم لا يرعى حرمة
مهنته ، فيضيع الوقت عبثاً ، أو يعلأ رؤوس من يستمعون اليه بالجهل ، أو
الناقص من العلم ، أو بما يضرهم في دينهم أو قوميتهم أو وطنيتهم ، ولا يذنبني
ان ننسى غش الموظف ايضاً الذي يجعل من الوظيفة مكاناً للقاء الاخوان
واللهو معهم ، وشرب القهوة وقراءة الصحف ، وذوو الحاجات وقوف
بابه يسألونه العطف والتنازل لبحث حاجاتهم وإنفاذها ، خصوصاً
الضعفاء ومن لناصر لهم . فليخش الله المعلمون والموظفون والبائعون
والعاملون والصانعون ، وليحذروا بطشه ، وليعلموا أن قرشاً يأخذه
أحدهم بالغش سيكون عليه ناراً موقدة ، لا يخفف من أوارها هذه

المتعة اليسيرة في الدنيا إن كانت ، وهيئات أن تكون . وما جمع الله على
أحد من النعمة والكراهية ما جمعه على الفشاشين الذين لا تستريح
الملائكة من كتابة سيئاتهم ، ولا تقتر لعنات المغشوشين ودعواتهم
تنصب عليهم ، وليرقب الناس بمصير الفشاش ، فإن كل من تصيبه
مصيبة وإن كان عاصياً يجد له راثياً ومعيناً إلا من عُرف بغشه ، فإن
الناس مجمعون على أن ينظروا إليه نظرة الشامت ، نظرة مملوءة بالتشقي
واللذة ، لما نالهم من إيذائه . وما من شك أن من الواجبات الكبرى
على المسؤولين ، أن يكافحوا الغش ويضربوا على أيدي الفشاشين
ويراقبهم بموظفين أمينين سالمين من هذا الداء الوبيل ، فإن من لم ينفعه
التذكير بالله وخشية حسابه ، رده الساطان عن غشه بزجره وعقابه .



من هنا طنت تشرق شمس الاسلام (١)

ان من أعظم ما رحم به الله الانسانية ، أن بعث لها رسلاً يحملون اليها رسالة الهدى والنور ، ويقودونها الى البر والمعروف ، ويعملون على تهذيب غرائزها ، والحد من شرورها . هذه رسالة الديانات إلى الأئمة ، ما تقصد الا الى الحق والخير ، ولا تسمى الا إلى الفضيلة والمروءة ، ولا تُعنى الا بتزكية النفس والسمو بالروح ، وما العالم اليوم بحاجة الى الاستزادة من وسائل الترفيه ، ولكنه في أمس الحاجة الى ما يحقق له السعادة والطمأنينة والهناء ، وما يمكن لمبدأ بشري ، مهما يعظم مفكروه أن يحقق هذه الغاية تحقيقاً مجدياً .

والاسلام الذي قد شرعه الله رحمة للعالمين ، جعل فيه سبحانه من الحيوية ، والقوى الكامنة ما أصبح فيها دين الخلود ، ومعجزة الحياة ،

(١) القيت في مسجد بلبغا ونقلتها الاذاعة السورية

وإن نعجب لشيء فلنعجب لهذه المرونة الصادقة في الاسلام ، لا المرونة
المناققة ، فلقد طوى في تاريخه الذي امتد أربعة عشر قرناً ، أمماً مختلفة
أشد الاختلاف ، متباينة أوسع التباين ، فمن الشعوب المختلفة التي
انضوت تحت رايته : العرب والترك والعجم والبربر والافرنج
والصقالبة والقتار والافريقيون وغيرهم ، منها أمم بدائية ، ومنها أمم
بلغت ذلك الزمن الحد الاعلى في الملك والحضارة .

نقول هذه الأمم المختلفة والمتباينة التي طواها تاريخ الاسلام ، قد
مدها الاسلام لا بالحاجة الروحية فقط ؛ بل كان لها تشريعاً ينظم من
حياتها الفردية والاجتماعية مادي ومأجل ، وليس التشريع ساذجاً عادياً ،
ولكنه عميق رائع قد تحرى الحق لوجه الحق . فللاسلام في هذا نصب
السبق بمجاوزاً حدود الزمن والمكان والاجيال ، فقد جمع المصلحة
للانسانية من أطرافها كلها ، واحتاط لمشاكلها العامة والخاصة ، بنظم
إيجابية عملية ، خالية من التعقيد ، بعيدة عن الضرر والاذى ، محببة الى
النفوس ؛ تخاطب في الانسان عقله وروحه ووجدانه . ووضع المثل
العليا لمختلف ملكاتها ومواهبها ، ولم يكثف بالمعالجة القانونية الظاهرة
بل طالع منها دخلتها معالجة روحية ، فالمرء حين يتعمد عما نهى عنه يتعمد

لأنه يسخط الله ولا يرضي ضميره ، وإذا أقبل على خير يقبل عليه إيثاراً
لرضا الله ، واستجابة لما يحتاج في نفسه من حب الخير الذي روض
نفسه عليه .

أيها المسلمون ! ما كان الظن أن نسمى في أن نبين المسلمين أنفسهم
قيمة دينهم ، بل ما كان ينبغي أن نسوق هذا الحديث إلا إلى الغرباء
عنه مبشرين ومنذرين ، ولكن موجة الشك التي تجتاح نفوس بعض
شبابنا والتي غزام بها الجهل الأجنبي والملحدون ، هذه الموجة التي
دعنا لأن نقول شيئاً ضئيلاً عن ديننا ، لنعرف معركاً ، بل لنذكر
ما وسعنا التذكير ، ولو أن الأهم كلها صمات عن أديانها وألحدت فيها ،
لما كان ينبغي أن يزيدنا ذلك إلا إيماناً و يقيناً ، ذلك أن ديننا كان لنا عامل
تقدم لا عامل تأخر . فقد اتسق مع منطق الحياة انساقاً منقطع النظير .
أيها العرب ! وما أدري من أنادي بقولي أيها العرب ، إن الذين
يريدون أن يكونوا عرباً غير مسلمين أو غير معترفين بالفضل الأكبر
للإسلام على العرب ، فأولئك لا عرب ولا مسلمون ، إن العروبة
لتنطوي على نفسها خجلاً من أن تنسب إلى غير من أوجدها ، إن العروبة
لنأبى بشم أن ينتسب إليها من يريدون سلخها عن أبيها وأمها ، إن

العروبة ليست بترجمة ، إنها لولا الاسلام لما أمكن أن يكون في الوجود ما يسمى أمة عربية ، فالاسلام بروحه رفع العصبة القبلية التي كانت تسيطر على العربي ، واستبدل بها وحدة عربية شاملة في الجزيرة وما جاورها ، والاسلام بقرآنه ، أوجد لها وحدة في اللغة ، لولاها لكان لكل قبيلة لغتها ، كما كان لها نهجها ونظامها ، والاسلام بروعة تعاليمه قدح زناد العبقرية العربية ، حتى بدت للناس بأمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

أيها العرب إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، وإن صحابته الكرام ، وإن دولة الامويين ، وإن منطق التاريخ الاسلامي ، كل اولئك كان يرى ان العروبة في كل المصور ، ضمان لحفظ الرسالة الاسلامية ، والعمل على بثها ، ويرى أنه إذا تنكر للاسلام أتباعه لاسمع الله ، فإن العرب أولي العهد والحفاظ ، يكفكفون من أطرافه ويؤونه فيما بينهم معززاً مكرماً ، لا يجحدون فضله ، ولا ينسون صنيعه ، وأما من يتنكر له ، فليس حقاً بعربي ، بل هو دعي ، فالعربي لا ينسى صنيعه قدمت اليه ، ولا يدا لأحد عليه ، وليس يجوز أن يفهم بعض الناس العروبة والاسلام على غلط ما يفهمه العرب من القومية والدين ، فالدين

عندهم غريب عنهم مناف لطبايعهم ، أما العروبة والاسلام فهما صنوان
أرضهما واحدة وطبيعتها واحدة ولفتها واحدة ، فحيثما وجدت العروبة
فثم الاسلام ، وحيثما وجد الاسلام فثم العروبة .

أيها السوريون ، من هنا ، من دمشق عاصمتكم اليوم وعاصمة
الأمويين من قبلكم ، كانت تشرق على يد العرب الأمويين شمس
الاسلام مشعة بهداه ونوره وعدالته . نعم من هنا ، من دمشق ، حمل
العرب في فتوحاتهم الى الهند والفرس وما جاورهما شرقاً ، وإلى إفريقيا
وأوروبا وما جاورهما غرباً . حملوا لهؤلاء جميعاً رسالة الاسلام ، رسالة
محمد النبي العربي القرشي (ﷺ) . إن دمشق هذه قد كان لها الفضل
الكبير في تثبيت هذه الدعوة الكريمة في أقطار الدنيا ، هل سمعتم أيها
السوريون بتلك الفتوحات الاسلامية الهائلة التي تلت فتوحات الخلفاء
الراشدين ، والتي لم يعهد من بعدها فتح . إنها فتوحات الأمويين ،
فتوحات اسلامية واسعة كانت تهيئها وتعد جيوشها وتدبر أمورها
دمشق هذه .

لقد كانت دمشق حيناً من الدهر ، وقدة الحياة الجديدة ، وشعلة
الدين الجديد ، والعالم الاسلامي من ورائها يسير في ركابها ، ويستنير

بنورها . كل هذا وما يشك أحد بمصيبة الامويين لعروبتهم وبعد
افليس من المعجب أن تهتم بلادنا بلاد الاسلام والعروبة بأنها بدأت
تذكر للاسلام الذي حرسها وحرسته . أقول تهتم فضلا عن أن يفكر
بعض أبنائها في ذلك . فما بالنا إذا كان هناك كتل تعمل في سبيل هذا
التنكر وتحض عليه ، بأي شيء يعتذر بيت العروبة والاسلام إذا هو بدأ
يكفر بالعروبة والاسلام . أرايتم أيها الناس لو قيل : أليف الملاحدون
المساجد ، وأليف العباد بيوت الخلاعة ، واستأنث الرجل ، واسترجلت
المرأة وصار الشرق غربا ، وصار الغرب شرقا ، وانقابت الفضيلة رذيلة ،
والرذيلة فضيلة ، أفما كان يدهشكم ذلك ويستثير استغرابكم وتعجبكم ؟
مثل ذلك وأفدح خطيئا أن يقال : إن في سوريا العربية المسلمة من
يتنكر للاسلام ويكيد للمسلمين . قال تعالى : « كيف يهدي الله قوما
كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات ، والله
لا يهدي القوم الظالمين ، اولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة
والناس اجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . إلا
الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم .

ليلة سمر في القرن الرابع^(١)

قالت الأم ، وقد راعها من فئاتها أن تسرف في القراءة ، وتغلو في التعلق بالكتاب : بغض هذا يابنتاه ! حسبك اليوم ما قرأت ، فإن أشد ما أخشى عليك أن ينال منك ما تنفقينه من جهد في هذه السبيل ، فيذوي جسمك ، حتى لا يقوى على حمل هذا الروح الذي ما برحت تتعبدين نماء وقوته ، وإني لأحاذر أن يأتي عليك حين يضطربنا أن نجذب الكتاب ، فخير لك أن نعدلي في قسم هذه الحيوية الفائرة على سني حياتك كلها ، تأخذين من يومك لعدك .

هلمي الآن ! فأصبي شيئاً من الطعام ثم أصاحي من شأنك ، فقد طلبت إلي (تربك) أن تروحي إليها في الطائف فاعندها اليوم من أخذانها ، من هن من ليلها ومن سمرها .

قالت الأم ذلك بحذب ظاهر ، وحنو شديد ، وفئاتها تستمع الى قولها بكثير من الدال والوداعة والمرح ، وتنظر إليها بعينين وطفوين

(١) نشرت في مجلة المرأة سنة ١٩٤٧

براقين ، تقذفان من حدة الذكاء وقوة المضاء وسحر الحلاوة ما يفرض عليك الاستسلام ، ويزين لك نوعاً من الفَيِّية تستعين به على تخفيف أثر هذه الروعة في نفسك ، روعة الجمال الذي يشعشع الذكاء من حوله حتى يبديه قوة تغطي على النفس والحس .

واستجابت سمدي الى أمها ، فطرحت الكتاب من يدها ، وتمطت قليلاً ، تريح ما أرهقت من أعصابها ، ثم نهضت بخفة ريم نافر تسمى الى ما تريده لها أمها مما عسى أن يكون متعة وزيناً . بعد أن فرغت من الأخذ بأسباب زينة يسيرة لا كلفة بها ، شأن المدلات اللاتي يعتمدن في نفوذهن لاعلى التطرية ، بل على ما حبتهن به الطبيعة من جاذبية وحسن غير مجلوب .

واقبلت على أمها فاستأذنت للانصراف بقبلة رستمها على وجهها ، وشيعتها أمها بنظرات مملوءة قولها واشفاقاً . وقد كان يحمىها من النظرة الفادرة ، إشماع من عزة المعرفة وشرف العنصر ، وكبرياء ععدة الصون والعفة والنأي عن المأثم .

كان لها أب من سراة البصرة وأثريائها ، في مطلع القرن الرابع للهجرة لم ينجب غيرها ، وغير أخت لها كانت دون التمييز حين انتقل الى رحمة الله . فاستأثرت ببر أبيها وعطفه ، وعاشت زمنه في ظلال من

النعم ، وذات الرفه ألوانا ، وقد عني هو كثيرا تهذيبها وثقيفها ،
وجمع لها من الكتب ما كان يروقها ، بعد أن ترك لها اختيار أن تسلك
من العلم أية طريق شامت ، فحذقت الفلسفة ، وبرعت في الأدب ،
وروت الشعر ، ونظرت في التاريخ وأيام الداس ، وكانت لا تفتأ تغشى
مقامات العلماء وحلقاتهم من أولى هذا الشأن ، في المساجد والاندية
والبيوت تفيد منهم وتناظرهم ، وتفوص معهم في أعماق البحث والدرس .
وفوق كل ذلك كانت عفة اللسان ، دمنة الخلق ، رضية النفس ،
تألف وتؤلف ، لاتزع إلا الى أشرف العلماء وذوي المروءات فيهم ؛
وتعزف عن كل زائغ القلب ، هزيل العرض ، مريض النفس والخلق
وليكن من أعلم الناس وأنهم ذكرا ، لذلك كله كانت في الذروة من
اعجاب الناس وتقديرهم واحترامهم ، حتى ما يجروا أحد أن يمسه بسوء ،
او ينال منها بكلمة مؤذية .

ولكن أمرا واحداً كان الناس يهتمون في التساؤل عنه ، ويودون
لو عرفوا له أسبابه وموجباته ، وهو هذا النوع من سوء الرأي يبادلها
إياه بعض رجال الدين ، كانوا يسمونها المغامرة المستهترة ، وكانت
تسميهم القصاص تارة والواعظين تارة أخرى ، وما كان يدري احد

سبباً لهذا اللزب بينهما ، وعهدم بها أنها تكبر عن محامقة الناس ، وأنها من القدرة بحيث لا تدفع الشر بالشر ، بل تغضى إغضاء الكريم إذا قدر .

قالت عائشة بنت عبد الله : وكنت إحدى السامرات في دارُ عليّة حينما دعت سمدي ، وهكذا كنا ندعوها باسمها ، إرضاء لرغبتها ، لما كانت تجهر به من أن في الألقاب سمة نقص وإن كان في ظاهرها الاكبار ، وكان يعجبها في ذلك قول الجاحظ :

« ما تزيد متزيد قط إلا لنقص يجده في نفسه » . ولقد كنا نتكلف أن نكون معها كما تريد ، لدات متساويات لانتكش عن مجاراتها في حديث ولا تعليق ولا نكتة ، وكان مما تذكر له استسلامنا لآرائها ويروقها أن تشمر بحيوية التجاذب وحرارته ، وإن يكون معها أكفاؤها لا أطفالها .

وجلسنا إليها جلسة ليست من الدنيا إلا في الزمان والمكان ، وما أرى إحدانا تأسف على شيء فاتهما من أمر الدنيا مادامت تظفر بمثل هذه الجلسة في الحين بعد الحين .

« وسألت سمدي ربة المشوى عن موعد حضور عُرب صديقتها

وعما اذا كانت ستحضر معها جارياتها المغنية بدعة ؟

فأجابت : بعد قليل ستحضر عُريب وما أدري أنستطيع أن تأتي معها ببدعة أم لا فقد أعتقنها ، وخرجت عن متناول يمينها .
قالت سمدي : وكيف ذلك ؟ وأنا أعلم أن إسحق بن أيوب بذل لمولاتها في ثمنها مائة ألف دينار ، وللسفير بينهما عشرين ألف دينار ، فأبت عليه ذلك .

قالت سمدي : كل ذلك قد كان ، ولكنه لم يمض يومان حتى جعلت عُريب تصادي نفسها عن ذلك ، وترى في هذا المال الوفير مايفري ، ولما أخبرت بدعة بالخبر آثرت البقاء عندها فحفظت لها هذا الوفاء ، ورأت أن تكافئها عليه بالعتق فأعتقها ^(١) .

وطرق الباب ، ودخلت عُريب ومن ورائها بدعة ، فقرحن جميعا وبرقت وجوههن ، وما استقر بهن المجلس حتى بادرت سمدي تهنيء بدعة وتبارك لها حريتها ، وبعد أن ملأت لها المكان دعاية حلوة سألتها من غنائها .

ومن أحب الأشياء إليها أن تأمرها سمدي فقطيع ، تحس بذلك

(١) قصة عريب وبدعة عن المنتظم لابن الجوزي في أول حوادث المئة الرابعة

أنها شيء في نفسها ، ثم غنت ، وجهدت أن نصيب بغنائها مواقع
الطرب من قوادها وقد تم لها ذلك ، فطربت سعدى حتى ثملت .

قالت عائشة : وتوقفت بدعة عن الغناء . استجابة لما يعتلج في
صدورنا من الرغبة في الاستمتاع بحديث سعدى .

وبدرت إحداها تقطع علينا سكون الطرب والانتظار سائلة
سعدى ، من هو ياسيدي قائل هذه الأبيات التي أولها

ألا يا حمام الأبيك إلفك حاضر وغصنك مياد فقيم تنوح ؟
فرفعت سعدى رأسها وما يزال في عينيها ذبول النشوة ، وفي وجهها
نضرة النعيم . ونظرة إلى السائلة وقالت مازحة مداعبة مخاطبةن جميعاً :
ما كنت أحسب أنك ستجعلاني من بدعة في موضع من التندر
والفاكهة حين يتبين لكن في المقابلة ، الشيء وضده ، وإلا فما خطبك
إذ تهبطن فتسمعن صوتي في التحدث ، بعد أن ذهب بكن ذلك
الصوت الملائكي كل مذهب ؟ أفما كان يستقيم لكن هذا الربيع
إلا على خسارتي أنا ؟

فأجبتها جميعاً والبسمة تخطر في نفورهن : طبت سعدى .

وقالت بدعة : أخشى إن صحت المقابلة أن يكون لك الربيع
على خسارتي أنا .

وقالت سعدى : إذا لم يكن بد من حديثي فالله حسبيكن ، ثم
انطلقت بهدوء ورقة وصفاء جرس ، تحملنا على جناحها الرفيق من
زهرة الى زهره حتى ارتفعت بنا في الحديث ، فتكلمت عن حقيقة
الأدب وقابليتها بحقيقة الفلسفة ، فيما قالته :

إن الأدب يستوحي التعبير عن جمال الطبيعة بطريق الإلهام ،
وإن الفلسفة تستمد البحث عن حقيقة الوجود بطريق المنطق ، فهما
بهذا شيان مختلفان ، فالأدب شيء على هامش الحقيقة لا يعسها فتحرقه ،
والفلسفة إن فاتتها الحقيقة فلن يفوتها أن تحاول بمنطقها إخضاعها ،
وإن كانت الحقيقة ماضية تعمل عملها ، ساخرة لا تبالي أوقع الناس عاينها
أم وقعت على الناس .

قالت عائشة : وهي تسرسل في قصص ما استقر في ذهنها من
حديث سعدى : لاجرم أنها كانت رحلة فكرية ممتعة وما زالت تعلو
بنا النجاد ، وتهبط الوهاد ، حتى انتهت بنا الى حظيرة الدين والتدين ،
وكنا نقف بهذه الحظيرة وقلوبنا واجفة مضطربة ، نخشى أن تمس
مقدساتنا ، وهي من الجرأة بحيث لا تبالي أن تقول ما تعتقد بكلمة جارفة
وهنا قالت واشتدت قليلا في صوتها : ليس هناك ما يعصمنا من

الحيرة والتردد والاضطراب ، ويُمكننا أن نزل ، ويجعلنا نشعر
بالحقيقة مؤمنين بها ، سعيدين بفهمها ، كل على مقدار ذكائه وعقله ،
غير التدين .

وتوقفت قليلاً عن الحديث ، كأنها تريد أن تنظر ما أحدثت فينا
هذه المفاجئة من عجب واستغراب وتساؤل . ومضت تقول .

لتذهب بكن الظنون حيث تشاء فاني ما أقول إلا ما أعتقد ، وما
أعتقد إلا ما أقتنع به ، وما أقتنع إلا بعد شك وتفكير ومقابلة وتجربة .
ولا تحسبن أني أقصد من التدين إلى مدلوله الذي شاع في هذا
الزمن عند القصاص وأمثالهم ، فهو لاء لم يأخذوا من الدين إلا أوهامه
البخيلة التي غزانا بها ملل جاورتنا ، ونحل من الهند والفرس وغبرات
من وثنيات قديمات ، وما من شيء تلبس بما لم يعط كهذه الأوهام
التي قمصت ثوباً من الفلسفة تارة ومن الدين تارة أخرى ، وإيست
منهما في قليل ولا كثير ، على أنه لا تنجم هذه الأوهام في أمة إلا في
حال إدارها وضيئها ، وما يفرع اليها إلا أولئك الذين يفرون من
مواجهة الواقع ليلتمسوا فيها نوعاً من المرقد الروحي ، يسكنون اليه
ويرضون به ويقنعون ، أقول لا أقصد إلى هذا النوع من التدين ، إنما

أريد من الدين القوي بوضوحه ، الصحيح بجوهره ، الذي يساير منطق الحياة ، وينظر الى الأشياء كما تريد طبيعة الأشياء .

وهكذا أنزل ديننا ، وفهمه الصدر الاول من الصحابة والتابعين وفهمه أئمة كثيرون من الفقهاء والمحدثين وزمننا ما يزال حافلاً بأمثالهم في الاقطار الاسلامية كلها ، ولا يؤسفني إلا أني قليلة الاختلاف اليهم ، وأرجو أن يتاح لي أن ألزمهم وأروي عنهم وألف منهم علومهم .

قالت عائشة . مارأينا قط كاليوم كنا نحدق النظر اليها كأننا نريد أن نستوثق من أن هذه المحدثه حقاً هي سمعدي بعينها ، فاصمعنا قبل منها حديثاً يشبهه ، وما ندري أفاجاها الدين في الايام القريه ، أم هو نتاج لبحث طويل لم تشأ أن تظهرنا عليه إلا بعد أن نضج واستكمل ؟ وسألتها إحداًنا مقتدرة في ظاهرها متأثرة في نفسها . متى سنجلس اليك ياسمعدي نفيدمنك الفقه والحديث كما أفدنا منك الأدب والشعر والفلسفة ؟ ومتى ستمصلين أنسابنا العامية بأولئك الذين نوهت بهم وأنذيت عليهم ؟

فقلت : هذا أمر نسأل الله أن يقدره لنا ويصلحنا به ، وكم أحب أن يكون من بالكن أنا بتديننا لاندع شيئاً مما كنا فيه ، ففي الدين

مذموم لذلك كله ولن تنكروا في غد من أمري شيئاً .

هذه عائشة زوج الرسول العظيم التي قال عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الخمراء » ، كانت أبلغ نساء عصرها وأعلمهن ، بل أبلغ من أكثر الرجال وأعلم ، وكانت إلى ذلك أروى لشعر ، واحفظ لتاريخ ، وأبصر بطب وفلك ، واجمل منطقاً واحسن حديثاً .

تقول عائشة بنت عبد الله : وقلت أنا ، وقد كان ينفذ المجلس ، بشراكن هذه أول الرواية من استاذتكن وصديقتكن سمعدي ، ثم انتثر عقدنا وقد تركت في عقولنا ونفوسنا وأرواحنا ما يشغلنا زمناً طويلاً .

قالت عائشة : واقبلت سمعدي بعد أيام على علماء الحديث ، تروي عنهم ويذكرونها الرواة جرحاً وتعديلاً ، ومامضت أشهر حتى جعلت لنا نحن الصديقات ساعة في الاسبوع لجميعنا ، وثلاث ساعات لبعضنا وكنت فيهن ، نستمع اليها ماروت ، وما مضت سنوات قليلة حتى اشتهرت عدالتها في طبقة المحدثين والفقهاء فكانوا يؤمنونها من الأقطار ليرووا عنها مائدة عنهم من حديث صحيح ، وليحدثوا تلاميذهم قائلين : حدثتنا سمعدي قالت حدثنا ... عن رسول الله (ﷺ) .

شهادة صابئي بتمتة أعظم^(١)

أعظم ما تمتاز به الرجولة : العدل بالحكم في الغضب والرضا ،
والقدرة على التحرر الفكري من منازع الهوى والعاطفة ، والتجرد
الصحيح عن مؤثرات الوراثة والبيئة والمجموع ، فإذا استحكمت في
في الانسان هذه المميزات ، وعملت فيها عملها الحق ، أسبغت عليه فضيلة
الاتزان ، وسارت به في طريق الحكمة ، ثم أثبتته في مصاف الكبار من
الحكماء ، الذين لا يستهويهم زخرف القول ، ولا تستفزهم مشيرات
الشمور ، والذين يسرون^١ متشدي الخطى ، يستوحون الفكرة من
ألبابهم البريئة العميقة التي لم يفتشها ميسم النأثر ، ولم تنخدع بمظاهر
الشمور العام .

فمن مثل هذه النفوس ، تبني الأمة الحياة المكيئة ، وبمقدار
وجودها تزان الحرية العقلية في الكثرة والقلة . والحق الأخير في حياة

(١) نشرت في مجلة التمعدن سنة ١٣٥٨ هـ

امريء موزعة تتقاذفها التيارات الخارجية من كل لون وكل صنف،
تقيمه مرغما ولا يدري ، وتقمده مرغوما ولا يدري ، وتأخذ عليه
استقلاله الذاتي فيقاد في التفكير وهو لا يدري أيضا ، وهذا نقص في
التهذيب النفسي والعقلي والعلمي ، وقد يكون نقصا في الاستعداد
أيضا . ومهما يكن من شيء فإن نستطيع أن نتصور من هذا القبيل
إلا القليل النادر من عظماء وفلاسفة وحكماء ، ولو يسر الانسانية
عدد وفير من هؤلاء لاستراحت من أوبئة سياسية واجتماعية وخلقية
تسف بها كل حين دركات ودركات .

ومادام الانسان لا يفكر إلا في جو الاقليمية أو العنصرية أو
المذهبية ، فلا قدرة له على التجرد وصراحة الرأي ، ولا سبيل له إلى
معرفة الحق كما يجب أن يكون ، وإنما يلتبس عليه الامر ، فيرى الخير
شرا والشر خيرا ، والحق باطلاً والباطل حقاً . ولكم اختلفت مدلولات
الاسماء بين الناس ، فكان هذا التفاوت العجيب ، الذي يدل بأقل مظاهره
على العبودية المستغرقة للطقوس الحزينة والمذهبية ، التي تخمد الفكرة
الحكيمة ، وتبطل عمل العقل ، فلا تبقى عندئذ إلا سيطرة الهوى
وتحكم الميول . هذا ، وما حددنا إلى هذا التمهيد الصغير إلا شخصية هذا

الصائبى الكبير : فهو ثابت بن قره الحكيم الطبيب الفيلسوف الممدود
من أعيان عصره في الفضائل ، والذي أجلى لنا من قوته الحكيمية
والفلسفية ، أكبر مثال لمعظم عاش لخدمة الرأي ، والبحث عن
الحقيقة ، والنزوع إلى انصاف الناس ، فقد تحدث وهو الصائبى ،
عن ثلاثة أعلام من المسلمين ، فقال كلمته العريضة البليغة التي تمثل
شهادة العظيم بالمعظم ، والتي تحفل بأقوى الخصائص التي تعتبر مفخرة
الأمم في السابق واللاحق : جلالة الحكم ، وإشراق الحكمة ، وسعة
العلم ، وهامي بنصها ، نثبتها لطرافتها ، وجمال صياغتها ، وعمقها
في الترجمة .

حدث أبو سعيد السيرافي : وهمك من رجل ، وناهيك من عالم ،
وشرعك من صدوق . قال : حدثنا جماعة من الصائبين الكتاب : أن
ثابت بن قره قال ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فانه :
عقم النساء فلا يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم
فقليل له : احص لنا هؤلاء الثلاثة . قال : أولهم عمر بن الخطاب في
سياسته ، وبقظته وحذره ، وتحفظه ودينه وبقينه ، وجزالته وبرزالته ،
وصرامته وشهامته ، وقيامه في صغير أمره وكبيره بنفسه مع قريحة

صائبة وعقل وافر ، ولسان غضب ، وقلب شديد ، وطوية مأمومة ،
وعزيمة مأمومة ، وصدر منشرح ، وبال منفسح ، وبديهة نضوح ، وروية
نفوح ، وسر طاهر ، وتوفيق حاضر ، ورأي مصيب وأمر عجيب ، وشأن
غريب . دعم الدين وشيد بنيانه ، واحكم أساسه ورفع أركانه ،
وأوضح حجته وأثار برهانه . ملك في زي مسكين ، ماجنح في أمر
إلى ونى ، ولا غص طرفه على خنا ، ظهارته كالبطانة ، وبطاقته كالظاهرة .
جرح وأسا ، ولان وقسا ؛ ومنع وأعطى ، واستخذى وسطا ؛ كل
ذلك في الله والله . لقد كان من نوادر الرجال .

قال : والثاني الحسن ابن أبي الحسن البصري . فلقد كان من دراري
النجوم علما وتقوى وزهدا وورعا وعفة ورقة وتألها وتنزها وفقها
ومعرفة وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه
تلبس بالعقول ، وما أعرف له ثانيا لا قريبا ولا مدانيا ، كان منظره
وفق خبره ، وعلايقه في وزن سريره ، عاش سبعين سنة لم يعرف
بعقالة شنعاء ، ولم يُزَنَّ بريية ولا فحشاء ، سليم الدين نقي الأديم ،
محروس الحريم ، يجمع مجمه ضروب الناس وأصناف اللباس لما يوسمهم
من بيانه ، ويُبيض عليهم بافتتانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا

يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع الحلال والحرام ، وهذا يتبع في كلامه العربية ، وهذا مجرد له مقاله ؛ وهذا يحاكي الفتيا وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة وهو جميع هذا كالبحر المعجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس موافقه ومشاهدة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العذب ، كالحجاج وفلان وفلان مع شارة الدين وبهجة العلم ورحمة التقى ، لا تنبيه لأئمة في الله ولا تذهله رائحة عن الله ، يجلس تحت كرسيه قنادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحب الكلام ، وابن أبي اسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخي صاحب الدقائق ، وأشباه هؤلاء ، ونظر أؤم ، فمن ذا مثله ومن يجري مجراه ؟

والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ، ومدرسة المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل ، وإن جد خرج مسك عامر ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزبد . حبيب القلوب ومزاج الأرواح وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ورسائله أفنان

مثمرة ، ما نازعه ، منازع إلا رشاه آتفاً ، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له
التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والامراء تصافيه وتنادمه ، والعلماء
تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامّة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين
الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين الشرف والنظم ، وبين الذكاء والفهم .
طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلته ووطي الرجال عقبه وتهادوا
أدبه واعتزوا بالانتساب اليه ونجحوا بالاقتران به ، لقد أوتي الحكمة
وفصل الخطاب .

هذا حديث الصابئي ثابت بن قره عن هؤلاء الثلاثة العظماء ،
ولقد أجادا الاختيار فاصطفى مثلاً من الذين هذبهم الدين ، وصقّاهم
التجارب ، وراضتهم سياسة الناس ، مع نفاذ البصيرة ودقة الفهم ،
وحصانة العقل وسمو الرجولة ، ولو كشفت حجب الجهالة والمصيبة
عن أعداء المسلمين ، ودرسوا عظماءهم لفهموا بالحق المثل الأعلى ،
ولعلموا أن الملة الإسلامية هي التي حفت بالكثرة من العظماء والحكام
والعلماء ، وعسى أن يأتي اليوم الذي يكثر فيه المنصفون ، فلا يبغضوا
الناس أشياءهم وينزلوهم منازلهم .

تكون بننا الاجتماعى وكيف يجب ان يكون^(١)

بروعنا من التاريخ ذلك الحادث الجائل ، الذي أبرز صفحة من الوحشية الاثيمة ، وقد تزلزلها النثر في ارتكابهم أنفطع جريمة عرفها الانسان ، ذلك الحادث الذي قضى على حضرة الدنيا وحاضرة المسلمين بغداد ، فقضى على كل ما فيها ، من علم ونور وحضارة ، وزهو وعظمة ونضارة ، ثم خلف من ورائها حشرات لا تزال تنوء منها أمم إثمهم ، ولا تزال تمضها جراحها وغشيت سحابة منها قلب كل مسلم وكل عربي ، فضاق بهما مذهب التفكير ، وذل الرشد نعم لقد فجأتهم بهذا الحادث داهية دهاء ، فقلقت أرضهم ، وزلزلت أركانهم ، وحطمت كياناتهم ، ثم غيبتهم في مطاوي الانحلال ، وبوأتهم من ضعفهم اسوأ المصير ، فاطمأنوا المسكنة ، وسكتوا عن الحفيظة ، ورضوا عن العيش ماداموا يأكلون ويشربون ، حتى إذا تفتح عليهم بضيض من نور ، وبسمة من

(١) الفيت في حفل عظيم اقامه معهد العلوم الشرعية ١٣٥٧ هـ ونشرت في مجلة التمدن الاسلامي .

أمل ، في إشراق العهد العثماني المسلم ، دهمتهم منه العنصرية الفاشية ،
التي تقضي على ما بقي من عزة النفوس ومن شممها ، وإن علت فيه كلمة
الله وأركس منها الذين كفروا ، ورفعت أعلام الدين في الأرجاء
كلها ؛ أجل لقد كان ذلك ، ولكن الشعوب التي دانت لسطوة هذه
الدولة لم تجد في قراد هذه السلطة شيئاً من التفتح الفكري الحر ، ولم تجد لها
خلاصاً من الضغط الفاضح المر ، وما كان هذا المبدأ يكفل ثبات
الدولة واستمرارها ، ولا هو مما يقره الدين ويسعى إليه ،
فقد كان النبي (ﷺ) وهو المشرع الأعظم عنده عصبة أمم
إسلامية يأتيه أمير القوم فيسلم ويعود ، وقد قلده إمارة قومه ،
حتى لا يشعره ولا يشعر قومه بنوع من خروجهم عما ألفوه ، وعما
ارتأوا إليه ، وسيدنا عمر كان يقول : « متى استعبدتم الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وقد كان من الواجب على دولة بتسلم زمام
الحكم بعد تلك الفترة البربرية ، أن تكفكف ما استطاعت من جورها
وعُمرامها ، وتطأطي من نُعَرتِها ، وترحب صدرها لقوم صوحتهم
نار الهول ، لتؤمن خيفتهم ، وتحفض جأشهم ، وتذهب عنهم الروع
لعلهم يستجمعون بذلك ويؤوب اليهم رشدهم ؛ فيشعروا وينهضوا
ويكونوا بالحق قوة الدولة لا يستهان بها ، ولكن مع الأسف كان

جهد الدولة متجهاً لتغذية الملك التركي وامتداد سلطانه . وهذا بعينه هو الذي كاننا الشيء العظيم ، كأننا أن نفق من المعنويات مالوا ادخراناه لأصبحنا في مصاف الأمم الحبة الكبرى ، فيألق نجمنا ، ويزدهر مجدنا . وتنعم بحياة ماثرة صفاء وخيراً ونعيماً ولكن الدنيا دول وسنة الله في الكون ماضية ، تحقق قوماً لتجيء بآخرين . وهكذا انقضى العهد العثماني ، وكانت الحرب العالمية التي كانت - على فداحة خطبها وسطورة مصابها - مفتاحاً ليقظة جديدة ، قد طالما امتد السبات من قبلها ، فقد طفقت النفوس تحس بشيء لم تكن لتجد له في أفئدتها أثراً من قبل ، أصبحت بعد الحرب تصبغ لما يهمس في ضميرها ، وتستشرف لشيء يعامها أن في الحياة جديداً هو غير العيش ، هو الحياة التي تقلب بها سلفهم بنعمة كانوا فيها فارهين ، هنالك بدأت تتفتح زهرة الآمال السعيدة ، وتهتز القلوب النشيطة ، وتفتر المباسم عن الفاظ الحرية والوطنية والاستقلال ، بعد أن لم يكن لها قبل الحرب ركن بين الناس ، لقد ابثت هذه الداعية تنمو في الأمم الإسلامية كلها في الجزيرة العربية وغيرها ، حتى ارتاحت لها النفوس ، وتأهبت للتحفز ، ونشطت لنهضة ترجوا فيها أن تقطع الشراك الذي ظلت

فيه محجورة حقباً طوالاً لاتلوي على شيء ، ولكنها وبالأأسف بغتت بالاستعمار ، وباله من صدمة تفك بالاحشاء وتضف المنة . والويل لرجال بالغوا بالاضرار بنا باسم الاستقلال ! فكان لأعمالهم أسوأ الأثر الذي أرهقت البلاد والعباد . ولو قدر لنا أن نكتب هذه النزعة المزعومة ، لكننا بخير وألف خير ، ولنجونا من ألم رزحنا تحته سنين كثيرة ، في حين كادت تضيق به الصدور ، وبأوبح المحجور والقافلة تسير . وإذا كان من مسئول عن هذا كله فهي الأمة ، التي كانت تثيرها السابيات ولو أودت بها . وتستهوينا القيادة المتهورة الخرقاء التي تحمل السيف الخشي لتصدع به القنابل جحيمها . أما وقد حنكتها الحوادث ونهتها الصدمات ، فليس اصعاليك السياسة غايها من سبيل لاجرم أننا نغني أنفسنا أحسن الأمانى ، فنكاف بالنجاح ، ونحلم بحياة مرضية طيبة ، ولكننا لم نبرح بعد في مستوى يحوجنا فيه استعداد غير هذا الذي نحن فيه قانا . والحق أقول - لانزال نحمل من الشعور الحقيقي بوجوب الانبعاث أقل كثيراً مما ينبغي لنا أن نحمل ، ومقياس النهضة في الامم مقدر بمقياس شعورها نحوها ، ويستحيل على أمة بغلي شعورها ، وتجب قلوبها ثم تجمع اتجاهاتها ، وتوحد آرائها أن

تطمئن بمقام لا يواتيها ، أو تغضي عن واقع تكرهه ، ولكنها تندفع
اندفاع الانبياء ، بعزيمة قوية وبسالة فذة ، ثم تقف بعدها من الحياة على
حد الفصلين ، إما أن تعيش أبداً أو تموت أبداً . هذه هي الأمة
التي تضطرم قوة وحماسة ، وتشتمل جذوتها قتملاً الدنيا فيحاً وأجيجاً
وهذه هي التي كتب لها أن تثبت في الوجود ، تهزأ بالأهوال وتحطم
العثرات ، وإن الأمة التي لاتعياً كثيراً بمصيرها ، ولا تقف من
أخرج أدوارها إلا كما تقف من ترجية الفراغ ، تلك الأمة الجديرة بأن
تكتنفها الولايات ، وتجبر عليها أقبح ما أخفته الأيام من تراجع وخسران ،
ولكن ليس فيما مضى حرج علينا وقد شط المزار وبعدت الشقة .
لأنصلنا بالماضي إلا الذكريات ولا بالحاضر إلا العقبات ، وكنا نبني
قوة من ضعف ، ونبحث رجاء من يأس ، ليس علينا أن نبطي السير
مادمننا نسير ، والذي يجب علينا الآن ، وقد فصمت المير وتسابق النفير
أن نحث النجائب ونرخي العنان وندفع الخطو ، لئلا يستمر الهادي
ويضل الطريق ، فيفجؤنا القدر بأقسى ما لديه ، ولا يتفمنا بعد ذلك
الندم ، وقد جف القلم ، فلنتعاقد على وحدة في المبدأ والغاية والرأي ،
ولنسر بمجتمعنا على نوايس البيئة والطبيعة والأقاليم ، لئلا نعظم

مع الفراز فيلبس علينا الخير والشر ، وتركبنا الحيرة التي لا يستقيم معها تقدم أو تأخر . وإذا ساغ للفرد - ولا يسوغ - أن يصطبغ بغير صبغة محيطة وأقليمه ، فإن يجوز بوجه أن تجري الجماعات في غير سبيلها الطبيعي الذي ورثته على بيتنها ، وإن ظهرت في بعض الأحيان بغير دنارها الملائم لها ، والفرد في المجتمع غيره باستقلاله الذاتي ، فهو باندماجه تنقيد حريته ويضؤل تفكيره وتذرب فرديته ، وإن يكن في ذات الوقت مستأسد الطباع ، مستوفز الرغبات ، قوي الأثرة والشره . فلنفهم إذن قبل كل شيء أننا شرق وأن عناصر وجودنا المعنوية والمادية هي من الشرق ، وعناصر الشرق كلها بروحه وإلهامه وفطرته وصفاء معناه مبثوثة في الشرقي متمكنة فيه ، وإن زعم أن في مقدوره أن يتخلص منها ، فلئن قامت داعية من دواعي السياسة ، أو داعية من دواعي الإصلاح العام ، تلجئ الناس في الشرق أن يتأثروا الغرب في نزعاته وغرائزه وأخلاقه وعاداته وأطوار اجتماعه ، وكل ما اختص فيه قد زرعه فيه جغرافيته وصقعه ، فقد حاولت عبثاً وركبت غرراً ، وأضاعت ما يمكن أن يتاح لها من الفرص ، لاستثمار الميول والطبائع في استخدام قواها الكامنة التي ترتد عليها ، فذشند صرتها ،

ويعنق جانبها وتفزع بالقوة من جانبين : انها قوية وانها هي منبع قوتها ، ولو أنها التمسست قوتها بالتقاليد ، لمسها الضعف أيضاً من طريقين ، بسط النفوذ المعنوي عليها ، ونه جيل النفوذ عليها بالتقاليد . واسنا نحظر التقليد بما يلقف عادة بوسائل الاكتساب كالعلوم والصناعات والاختراعات ، فكل هذه عوارض يستعان بها على تقويم الحياة ، وإنما نحظر التقليد في المواسم والغرائز والاطوار التي هي جوهريات التكوين ، ولكن مانصنع بدعاة هم في الحقيقة من زعانف المفكرين ؟ فالملخص العظيم في الأمة من يقودها بأرھف محساتها ، وهي فطرتها التي لايسعها أن تنفصل عنها ، وما تلك الفطر فينا إلا الحياة الروحية أو بالأصح الدينية الاسلامية ، والتي يكون الانخلاع عنها انخلاءً عن أي تقدم اجتماعي أو سياسي ، ولا تهوان هذه الكلمة أناساً صردوا عليها فهي الحقيقة التي لا ريب فيها وإن ضاقوا بها ، ووجدوا في أنفسهم حرجاً منها وما علينا إن حسبوها تقيهاً أو رجعية وقد كانت حقيقة انضائاً نشدانها والسعي وراءها ، ولكن كم يدع الانسان الحق القريب فيطالب به الباطل البعيد ؟

هذه خلاصة مايجب أن يكون عليه مجتمعنا ، وما للنفوس دواء

تستجيب به ، ويحفها الرشاد وينقلب إليها الخير كله غير أن ترجع إلى الدين بصفاء روحه ، وصحيح معتقده ، الدين الذي لم يشبه البدعة ، ولم يخفت سره التقليد ، ولنعلم أن الذي استطاع أن يستبدل بابن أبي قحافة وابن الخطاب وابن أبي طالب وابن أبي سفيان (الرجال الجاهلين) أبا بكر وعمر وعلياً ومعاوية وعمر بن (الرجال العالمين) ، لا يعجزه أن يجدد فينا نفوساً تشرع الخير وتخلص من الضر ، ولا يعجزه أن ينقذنا من البؤس ويصطلم منا جرائم الحطة والمسكنة ، ثم يسمو بنا إلى الشرف والعزة والمجد ، نعم لا يعجزه كل ذلك ، ولكن أن هم كرامة الميدان الذين وقفوا للإصلاح نفوسهم ، يحيون ما أمات المبتطلون ؟ وأين هم الذين خفوا ليحملوا هذه المهمة بعقيدة وصدق وجدارة وقوة فيقودوا هذه الجماعات الظالمة بالدهاء والاخلاص ؟ وأين هم الذين يستطيعون أن يكونوا أطباء روحيين واجتماعيين فيعالجوا هذا الوباء المنتشر علاج المحنك المرن ، فيستخدموا المواهب ليشيدوا عليها الحياة القوية الرفيعة الممتازة ؟ إن من سوء الحظ أن نفتقد كل هؤلاء ، وأن نجد من نخالهم أهل ذلك ناكبين محجوبين ، غافلين عن الواجب ، الواجب الذي يطلبهم فيفرون منه ، ألا يعلمون أنهم إن أحجموا عن

خوض المعركة ، فقد أساؤوا إلى ملتهم ووطنهم وأمتهم ؛ ألا يعلمون
أنهم سيدسألون أمام الله فيحاسبهم وبطيل حسابهم ؟
ليس الدين ياسادتي ما تحتقبه الأدمنة فحسب ، إنما الدين الذي
تعيه القلوب والمشاعر ، فتشمه على العقول فتخرج منها عظاماً مفكرين
ودعاة عاملين ، ينصرون الحياة وينشرون فيها النعمى والسعادة ،
وهيئات أن يكون التفكير اللاشعوري وحده سائقاً إلى العمل بعسر
وصدق وإذا كان خير القرون في الاسلام القرن الاول ثم الذي
يليه فذلك لأنه يضم نفوساً امتلأت بالايان ؛ واستشعرت العقيدة
وهل تخرج العقيدة إذا امتزجت بالنفس وامتدت مع الروح إلا مثل
أبي بكر وعمر ا ...

فما أشد حاجتنا نحن المسلمين اليوم وقد غبرت علينا أزمان وأجيال ،
وأمكن أن بعيد التاريخ نفسه ، أن نهى علماء عاملين يحملون إلينا
الرسالة بقلوبهم قبل ألسنتهم ، وبأرواحهم قبل أجسامهم ، لا يتعلمون
العلم ليفاخروا به الاقران ، ويماروا به السفهاء ، ويصرفوا وجوه الناس
إليهم ، بل لوجه الله ، ولنصرة الحق ، يشعرون ثم يتعلمون ، ليقووا
شعورهم ويدعموا يقينهم ، ثم لينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم بالحكمة

والموعظة الحسنة ، لعل الدين يعود فينتعش في نفوسنا فيصبح قوة
وأي قوة ، قوة ثلاثمائة ألف ألف من البشر ، كل واحد منهم بإيمانه
أمة تجابه أمة ، بعد ان لم نكن إلا غناء كثناء السيل . إن علينا أن
نحس بوجود هذا الایجاد ليكون . وإذا كان ليقوى ، وإذا قوى
ليتشجع ويسير في مهمته ويعمل عمله ، فإذا وجدناه وجدنا كل شيء
وإذا فقدناه فقدنا كل شيء . وأما بعد فالله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم
مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله
عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ،
وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم
آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا
كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم
عذاب عظيم » . ويقول :

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم »
فها نحن تنشد الحياة ، ونحب الاستقلال ونهزج بالحرية ، فهل

سلكنا الطريق ؛ ليس انا وربكم إلا أن نهرع ونستجيب لمن ينادينا
للاحياء ، فهو الذي نصر أسلافنا على أعدائهم ، وسينصرنا عليهم ،
وعشنا نفكر في سبيل غير هذا لنجح فيه ، لانه لا يصلح آخر هذه
الامة إلا بما صرح به أولها ، فلنعاضد ديننا ، ولنجمع أمرنا ، ولنشد
أزرننا ، لنصبح صفاء واحداً بالايان والصبر ، ونهض نهضة الليث ،
ثم ندعو مجدنا القديم دعوة حق ، قائلين :
ها قد تهيأنا فارجع إلينا نفدك بأرواحنا ودمائنا .



جولة في كتاب (١)

هذه جولة في كتاب ولكن ماذا عسى ان يكون هذا الكتاب ؟
ان الحضارة الاسلامية أغنى حضارة في العالم ، علما وكثرة كتب ،
ووفرة تأليف ، في كل فرع من فروع العلوم ، ولكن ما نحن بسبيله
في حديث الجمعة الديني أن يخول في كتاب في الوعظ والارشاد ، وليس
كل كتب الوعظ والارشاد كتباً تصلح للارتفاع في المعاش والمعاد ،
فان منها ما يصرف الانسان عن الاتعاظ ، ويزهده في البر والتقوى ،
لما يحويه من كثير من الاحاديث الملققة والضعيفة ، وان منها ما لا يحسن
تشخيص الداء ولا وصف الدواء ، يتبهما الغر فيقع في امراض نفسية
 واجتماعية ودينية افدح خطباً وأسوأ مغبة ، اما كتابنا الذي سنجول
فيه واسمة جيد الخاطر ، فقد امتاز عنها جميعاً ، امتاز في مؤلفه ، وامتاز
في موضوعاته وطريقة تأليفه ، اما مؤلفه فهو الحافظ بن الجوزي ، اكبر

(١) القيت في الاذاعة السورية

عالم ومؤرخ ومحدث في عصره ، واشهر واعظ ، حتى قيل من ترجمته :
إنه كان يحضر دروس وعظة نحو من أربعين ألفاً ، وحضر دروس
وعظه بعض الرحالين المشهورين ، وأظنه بن جبير فقال عنه ما معناه :
حضرت دروس عالم كأن قلوب الناس بيده فهو يضحكهم إذا شاء ،
ويبكهم إذا شاء ، وأما الكتاب فإن مؤلفه لم يتكاف وضه ولا صياغته ،
ولمّا سجل فيه خواطره وتجاربه اللاتي مرت بالمعجب ان يغاب وإنما
المعجب ان يغلب في حياته الدينية والعملية ، وأرانا فيه صورة صادقة
عن الدين ، كما كان زمن محمد رسول الله (ﷺ) سمحاً كريماً صافياً ،
يعالج كل مشكلة من مشاكل الحياة معالجة حاسمة ناجحة ، يعالجها من
أساسها بالتشريع والروح والقلب والضمير .

كل هذه الألوان من الارشاد ماثوثة في الكتاب ، وقد جهد المؤلف
في كتابه هذا ان ينزع عن جوهر الدين ما تغشاه من الخرافات الكثيرة
التي جمعت منه على الايام طقوساً مثل طقوس البوذية والمائوية في شل
حركة الانسان وابعاده عن طبائعه وغرائزه ، وعن حياته العملية ، وقد
قال المؤلف في كلام له : « فالحذر الحذر من افعال اقوام دققوا فرقوا
عن الاوضاع الدينية ، وظنوا ان كمال الدين بالخروج عن الطباع ،

والمخالفة للاوضاع » . ومن نظرات المؤلف الدقيقة والصائبة ، موعظة على اساس فهمه لحقيقة الانسان ، وانه ميال بطبعه الى نوازع الجسد ، ليبعد بوضعه عن الآخرة ، فقال في ذلك : « جواذب الطبع اي الدنيا كثيرة ثم هي من داخل ، وذكر الآخرة امر خارج عن الطبع ، ثم هو من خارج ، وربما ظن من لا علم له ان جواذب الآخرة اقوى لما يسمع من الوعيد في القرآن ، وليس كذلك لانه مثل الطبع في ميله الى الدنيا كالماء الجاري فانه يطلب المهبوط ، وإنما رفقته الى فوق يحتاج الى التكلف ، ولهذا أجب معاون الشرع : بالترغيب والترهيب يقوى جند العقل ، فاما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب ان يغلب وإنما العجب ان يغلب ومن المنحقق ان المؤلف من اول من سلك السبيل النفسي العميق في إصلاح الانسان وتوجيهه الى الخير ، ومن قرأ الكتاب قراءة إيمان تزود منه بمعلومات نفسية جمة ، تصليح أن تكون نواة لعلم النفس الذي أتجه اليه بعض علماء المسلمين في القديم كالغزالي وابن الجوزي وأمثالهم وفي الكتاب ثلاثمائة وثلاثة وسبعون فصلاً ، ليس لفصل منها عنوان ، مما يدعو الناظر في الكتاب الى ألا يدع فصلاً من غير قراءة ، ولكل فصل موضوع خاص ، يعالج فيه المؤلف مشكلة

نفسية أو دينية أو اجتماعية معالجة مرنة عملية ، بعد ان يصف واقعها
ويشخص داءها ، ومن العسير ان يمر في ذهن الانسان حادثة فردية
أو اجتماعية ، دينية أو دنيوية ، ولا يجد لها في الكتاب فصلاً ، فن
فصل يعالج فيه تطهير دخيلة الانسان ، الى فصل يعالج مشكلة الاسرة
والزواج والاولاد ، ومن فصل يوضح وجهة نظر الدين في الحياة الدنيا
الى فصل يكشف حقائق مستورة قد يظنها البعض انها ليست من
الدين وهي منه ، أو يظنها منه والدين منها براء ، وكثيراً ما عمداً الى
تفسير أشياء وتعليل امور يستغرب المرء اليوم ان تصدر عن عالم كبير
مثل ابن الجوزي ، لا لاثنها مما يستعجن ، بل لانا حسبنا في العصور
المتأخرة ، ان العالم الشرعي يذني ألا يفهم من أمور الحياة إلا الصلاة
والصيام والمكوف على المساجد وما الى ذلك ، ولا تقرأ من الكتب
إلا ماله بذلك علاقة ، مع ان القرآن والسنة شرعا في امور الحياة الدنيا
ضعف ما شرعا في امور العبادات والطاعات وعلى هذا الاساس وضع
المؤلف هذا الكتاب ، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها بأسلوب
مشبع بالحكمة والحنكة والتجارب العملية والدينية . ولندع الآت
الحديث عن الكتاب ، لنقطف شيئاً من فصوله . ففي الحرص على الوقت

والاستفادة منه وعدم التفريط في القليل منه ، قال المؤلف رحمه الله :
« رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان ، وكان القدماء
يحذرون من ذلك قال الفضيل أعرف من يُعَدّ كلامه من الجمعة
الى الجمعة . ودخل على رجل من السلف فقالوا لعلنا أشغلناك ؛ فقال
أصدقكم، كنت أقرأ فتركت القراءة لاجلكم . وجاء رجل من المتعبدين
الى سري السقطي فرآى عنده جماعة ، فقال صوت منخ البطالين ،
ثم مضى ولم يجلس ، ومتى لان المزور طمع فيه الزائر فأطال الجلوس
فلم يسلم من أذى ، وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقال :
إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أما تريدون القيام . وممن كان يحفظ
اللاحظات عامر بن عبد قيس : قال له رجل قف أكلك ، قال فامسك
الشمس » الى آخر الفصل .

وفي معنى الجِد والمثابرة على العمل والتعب في سبيل الغايات الشريفة
قال أيضاً من فصل : « تأملت عجباً ، وهو ان كل شيء نفيس خطير
يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله ، فان العلم لما كان أشرف الاشياء
لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر الذات والراحة . حتى
قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهي المريسة ولا أقدر ، لان وقت

بيعها وقتُ سماعِ الدرس ، ونحو هذا تحصيل المال ، فانه يحتاج الى المخاطر والاسفار والتعب الكثير ، وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فانه يفتقر الى جهاد النفس في بذل المحبوب ، وربما آل الى الفقر وكذلك الشجاعة فانها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس .
قال الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والاقدام قتال
وفي معنى إتباع الجادة السليمة في اعتدال وقصد ، الاقتداء بصاحب الشرع قال المؤلف أيضاً « الجادة السليمة والطريق القويمة ، الاقتداء بصاحب الشرع ، والبدارُ الى الاستئان به فهو الكامل الذي لا نقص فيه فان خلقاً كثيراً انحرفوا الى جادة الزهد ، وحملوا انفسهم فوق الجهد ، فأفاقوا في أواخر العمر والبدن قد مُنْهَك ، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره وان أقواماً انحرفوا الى صورة العلم فبالغوا في طلبه فأفاقوا في أواخر قديم وقد فاتهم العمل به ، فطريق المصطفى (ﷺ) العلم والعمل والتأطف بالبدن ، كما أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له: إن نفسك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً فهذه هي الطريق الوسطى . الى ان يقول ومن تأمل حالة الرسول (ﷺ) رأى كاملاً

من الخلق يعطي كل ذي حق حقه فتارة يخرج ، وتارة يضحك
ويداعب الاطفال ويسمع الشعر ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معاشره
النساء ، ويأكل ما قدر عليه وفتح له ، وان كان لذيذاً كالعسل ،
ويستعذب له الماء ويفرش له في الظل ولم ينكر ذلك ؛ ولم يسمع
عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفه والمتزهدين ، من منع
النفس شهواتها على الاطلاق ، فقد كانت يأكل البطايخ بالرطب ،
ويطلب المستحسنيات ، فأما أكل خبز الشعير ووزن الماء كوزن
وتجفيف البدن ، وهجر كل مشتهي ، فانه تعذيب للنفس وهدم للبدن
لا يقتضيه عقل ولا يمدحه شرع ، إلى أن يقول : ثم كان النبي (ﷺ)
يوفي العبادة حقها بقيام الليل والاجتهاد في الذكر ؛ فعليك بطريقته
التي هي أكمل الطرق بشرعته التي لا شوب فيها .

هذه أ، ثلة قليلة في اتجاه المؤلف لاتصاح أن تكون نموذجاً كاملاً
للكتاب ففيه مواضيع كثيرة ونصائح ثمينة لاستطيع ان تأتي على
جميعها بأمثلة وإصلاح الدين بما لا يفسد الدنيا ، وغايتها إصلاح
الدنيا بما لا يفسد الدين .

الهوم ارادة وعزية ورياضة روهية^(١)

تدبر المرء ان يسترسل في هواه ، فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء ،
ويسوءه ان يعرض سبيله ما يحقف من هذا الاسترسال أو يمنعه ، ويدعو
ذلك حرية وانطلاقا ولكن لو شاء الانسان ان يضم الامور في نصابها
ويردها الى ابواب العلم ان تسميته حرية وانطلاقا تسمية جوفاء وتسمية الشيء
باسم نقضيه فاي معنى لان يتخلص الانسان من استعباد الناس والاشياء له
ثم يتهالك على العبودية لنفسه وهواه ، ويسمى هذه العبودية الحاطمة
حرية تخادعه بذلك نفسه الأمانة بالسوء وتزينه له فالحرية الحقيقية
حرية الارادة لا حرية الهوى التي يوحى بها شيطان الحيوانية والغريزة
والانانية الممتوتة وحرية الارادة لا تستوحى من الرغبات القريبة الفردية
وانما مستمدتها من الرغبات البعيدة للعقل المندمج في العقل الجماعي ،

(١) القيت في الاذاعة السورية .

فاذا رأى امرؤ مسلم في بلد مسلم مثلاً أن يشق صفوف الكثرة من مواطنيه وبني ملته لينتبهذ ناحية يعلن الحرية بافطاره ، فذلك الذي انعتق حقاً من تحكم العقل والارادة والذوق ايضاً ، واستبدت به عبوديته صعبة قاسية لانها تحلى له في اردية الحرية البراقة المحبوبة . اذن ليست الحرية الحقبة ان يفعل امرؤ ما يريد ويدع ما يريد ، بل هذه عبودية ما اصعب التحرر منها ، لانها عبودية أضر ما فيها أنها تتردى رداء الحرية الكاملة ولو اتىح للبشر جميعاً ان يسلك السبيل إلى هذه الحرية الظاهرة يسلك بالطبع سبيل فنائه ، وكل ما في الدنيا من قوانين وسلطات عاجز كل العجز عن أن يضبط نوازح الهوى ، ويخفف في غلوائحب الذات في النفس الانسانية ، وان فعلت شيئاً هذه القوانين والسلطات فانما تحاول أن تضع سدوداً لطغيان الغرائز في هذا الذي يسمونه الحريات الفردية ، فالقوانين لا تتمدى مراقبة الظاهر ، أما ما يغتلي من وراء الظاهر من ضرور فلا تهتم به القوانين حتى يبرز وتعر عليه والذي يعالج الانسان معالجة فعالة في ظاهره وباطنه ويحد من هواه وميوله ويعمل جاهداً على تهذيب غرائزه ، وتقليم أظافره ، انما هو ديننا الاسلامي وحده ، فقد وضع لغرائز الانسانية واهوائها وتصرفاتها

أعنة محكمة يأخذها بها عند ما تجمع وتماهى ، وسمى الى ترويضها في سلسلة محكمة من العبادات ليرفعها الى المثل الساقى من الانسان الكامل الذي يشعر انه جزء متماسك من كل ما يؤذيه ما يؤذي غيره ، ويسره ما يسره غيره ، وذلك باخباته لله في العبادة ، وشعوره ان هذا الخلق عيال الله ، فاحب الناس الى الله أنفعهم لعياله ؛ فالعبادات كلها في الاسلام رياضات روحية رائعة ، إذا مارسها مستجيبا بها لنداء الله خاضعا لأمره ، ومهتما في أن يكون شعوره بها انتقالاً من عالمه الارضى المادى الى حظيرة السماء حظيرة خالقه والمذم عليه ومن بيده الامر كله ، والعبادات تغذية روحية تقوي بها الروح وترعرع حتى تبلغ ان تصغر امامها الحوادث الجسام وتضمحل تلقاها كوارث الحياة وآلامها . وتفرج بها مشاكل العيش ، وما أوائك الذين يظنون أنهم اغنيا ، عن ممارسة العبادات والقيام بها الا قوم يحبون أن يترك المرء وشأنه تصرفه في الحياة رغباته وأهوائه ، ولا يبالون بعد ذلك إن وقعت الكارثة في تعارض المطالب والشهوات ، فالقيام بالعبادات على وجهها تزكية الروح وقد أفاح من زكائها ، وإذا زكت الروح أرتفع الانسان وسمت خلأته ، وصفت طبائعه ، وكانت اتجاهاته نبيلة الغاية

شريعة القصد ، وتنظيم العبادات في الاسلام رائع بديع لم يخل فترة من حياة الانسان يمكن أن تطفى فيها ماديته على روحه الا عاجلها بالعبادة ، وليرتد المرء إلى روحه وليذكر في كل احواله قائماً أو قاعداً أو على جنبه ، ان هناك إله يطاع على اعماله ، ويعلم ما تكن نفسه ، وما يتردد في فكره ويخالج في قلبه ، فاذا أيقن المرء بذلك وامتلأ به قلبه ، وخفس شيطانه وهذبت حيوانيته ، وقبعت نوازع الشر فيه ، ونزع الى الاحسان بدل الاساءة والى الخير بدل الشر ، وقد جعل الله للعبادات مواسم ، ووزع على قدر تكرارها تكاليفها ، فموسم عبادة لا يوم وموسم عبادة الاسبوع ، وموسم عبادة للسنة ، وموسم عبادة للعمر كله ، فعبادة اليوم الصلوات الخمس ، وعبادة الاسبوع صلاة الجمعة ، وعبادة السنة رمضان ، وعبادة العمر الحج الى بيت الله الحرام ، وكل عبادة من هذه العبادات لها أثر خاص في التهذيب الروحي . فالصلوات الخمس صلاة بين العبد وربه في كل يوم يناجيه بها ويشهده على نفسه انه إياه يعبد وإياه يستعين ، وأنه مقبل عليه طارحاً من ورائه كل شيء من امور دنياه اذ يقول في كل حركة من صلاته . الله اكبر ، واذا يقول في ركوعه : سبحان ربي العظيم . وفي سجوده ، سبحان ربي الاعلى بقلب خاشع وهو

يشهد ربه الخالق سامعاً مناجاته ومباركاً له هذه الزلفى اليه .
وصلاة الجمعة صلة اجتماعية يقبل اليها المؤمنون من كل حذب وصوب
ليمثلوا أمام خالقهم مجتمعين متكاتفين يشهدونه بلسان حالهم ازما يصيب
احدنا يصيب جميعنا من الخير والشر ، وانهم من التضامن بحيث لا
يستطيع احد ان يفرق صفوفهم او يضعضع كيانهم ، ثم يقبلون عليه
بعبادة واحدة من وراء إمامهم ، الذي يرشدهم الى اصلاح ذات بينهم
ويدلهم على سبيل البر والخير ، وبأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ،
اما عبادة الصيام ، فهي عبادة اجتمعت فيها كل العبادات ، من صلاة
وقيام وقراءة قرآن وبذل وصدقة ، فضلاً عن هذا الجهاد الاكبر في
سبيل التخلص من عبودية الشهوات ، في الامساك عن الطعام والشراب
والملاذات ، وعبادة الصيام عبادة عملية حازمة ، تقف للانسان في طريق
اهوائه وشهواته ، لتجدهم منها وتكسر من شرتهما ، فابلاء الانسانية إلا
منهما ، وما من رذيلة فردية او عامة إلا وكان أساسها هذه المطالب
الجسدية العارمة التي تحاول ان تحطم كل شيء في سبيلها ، فالصيام كما
أمر الله كفيل ان يفتأ من حدة الشر ، الذي ينتج عنه نهم الانسان في
الاستجابة لنفسه الامارة بالسوء ، والصيام كما أمر الله ان تمسك لسانك

لا عن الطعام والشراب وما يبطل الصيام في الظاهر ، وإنما ان تمسك
عن كل ما حرم الله من عثرات اللسان والجنان .

فرمضان كما امر الله تصفد فيه الشياطين ومردة الجن وتغلق ابواب
النار وتفتح ابواب الجنة كما ورد في الحديث : إذا كان أول ليلة من شهر
رمضان صفدت الشياطين ومردة ، الجن وغقت ابواب النار فلم يفتح
منها باب ، وفتحت ابواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي منادي يا
باغي الخير اقبل ، ويا باغي الشر اقصر .

* * *

صيام المتقين (١)

يذكر المرء الجوع والعطش ، فيذكر بهما عدوين لدودين ، ويذكر الفقر فيذكر به الكفر ، كأنما كل شيء في الحياة الدنيا ، ان يشبع الانسان ويروى ويكفى المال ، مع الانسان قد فضل الحيوان بالعقل وفضله لسمو الروح . أما العقل فلنكي يتصرف بأموره مختاراً وفق مصالحته الفردية والاجتماعية ، وأما سمو الروح ، فلينطلق من هذا القفص الجسدي الى عالم أرحب ، فيه المتعة والسعادة والحق والحرية ، وما يتاح له ذلك الا بأن يتناسى مطالب جسده وشهواته ، ويذعن لارادة روحه ، فان لم يستطع ذلك حياته كلها ، فلا أقل من أن يعالج ذلك من نفسه فترة من حياته . ولو ترك المرء وما يختار لآثر لذاته الفانية على الباقية ، ولذلك فرض الله سبحانه عليه بصورة إلزامية ، صيام هذا الشهر المبارك ، يُعينه بصومه على نفسه ، ويرفقه إلى الخير

(١) القيت في الاذاعة السورية في شهر رمضان

والسعادة مرغماً ، فرمضان هو الجسر الذي وضعه الله سبحانه وتعالى ،
لأولئك الذين أراد إسماعهم ، بتقلهم من عالم أكثر ما فيه الفساد
والشر ، إلى عالم الروح الذي ليس فيه إلا السلامة والنعمة والطمانينة .
وما ينبغي أن نغفل عن أن رمضانا الذي نصومه على طريقتنا ، ليس
هو رمضان الذي يستطيع أن ينهض بأعباء هذه الرحلة المباركة ، من
عالم الفساد إلى عالم الصلاح ، فرمضاننا لا يختلف عن أشهر السنة إلا
بالجوع والعطش بياض النهار ، ولكنه يزيد عليهم بكثرة اللغو ، والي
اللسان بالباطل واللاهو ، يزجي الصائم بهذا فراغه ، وينسي به جوعه ،
ويقطع وقته ماضياً عاتياً وناماً مستغيثاً ، فإن اتخذنا رمضانا مركباً
ننتقل به إلى حياة أمثل وأفضل ، فإنما نركب منه سفينة خرقاء في بحر
لجى ، لا يمكن أن نحلم فيها بنجاة ، فضلاً عن أن نستطيع أن نتم فيها
هذه الرحلة الميمونة ، أما رمضان المنقن ، الذى أقبلوا عليه فرحين
ممتبشرين ، لا متذمرين ولا مكرهين ، فهو الرمنان الذى أطلق
سراح هؤلاء من أمر شهوة الطعام والمذات ليجلبهم إليه ، ويذيقهم
صفوه ويمتعهم بأنسه ويشملهم بنوره ، ويمنعهم فرحتيه ، ويثبت في
نفوسهم اللذة بالطاعات ، وحلاوة العبادات ، فهؤلاء لا يهتمون بما يهتم

به الناس من انصرفهم الى التفكير في الطعام ، وإعدادة نهارهم كله ،
 ولا يجوعون وبمطشون ليروحوا في مساكنهم الى طعام وشراب قد
 تفتنوا كثيراً في تجويدها وتلوينها ، لئلا ياكلوا ويشربوا بعين الجائع ونهم
 المنوع ، وإنما يهتمون بارواحهم وغذائهم ، وما يقويها وينشطها ،
 ويريدون أن يحققوا الغاية من الصيام ، بأن يكفوا النفس عن تاديبها
 فيما كانت فيه قبل الصيام ، ويروضوها على الصبر والطاعة ، ويحملوها
 على الصبر عن المعصية ، ويكفوها عن الاستشراف الذي تصل فيه الى
 ما لا يجوز أن تبلغه ، حتى لا تهلك باستشرافها ، أما طعامهم فالطعام
 العادي وأقل منه ، لا يتكفون تجويده ، كما لا يتكفون إهماله للرياء
 والسمعة ، على أنهم لا يبلغون من الشبع حداً كما قيل ليثاني : ما حد
 الشبع ؟ قال : أن يحشى حتى يحشى . أو كما قيل لسمرقندي : ما حد
 الشبع ؟ قال : إذا جعظت عينك وبك لسانك ، وثقلت حركتك ،
 وازمح بدنك (أي مال من الثقل) ، وزال عقلك فأنت في أول الشبع .
 قيل له : إذا كان هذا أوله ، فما آخره . قال ان تنشق نصفين . فما يبلغ
 المتقون هذا الحد من الشبع عند الافطار ، ولا قريباً منه كالكثر من
 الصائمين ، وإنما يأكلون الى حد يُنقذون به أنفسهم من الهلكة ،

ويستعيدون به نشاطهم ، حتى يقووا على إتمام الصيام ، وعلى مواصلة الطاعات التي إن فاتهم موسمها فاتهم خير كثير ، وهم كما قال بعضهم وقد سئل عن حد الشبع ؛ الشبع حرام كله ، وإنما أحل الله من الأكل ما نفي الخوى (الجوع) ، وسكن الصداع ، وأمسك الرمق ، ثم قال : وهل هلك الناس في الدين والدنيا ، إلا بالشبع والتضلع والبطننة واحتشاء ، فرمضان المنقن ، رمضان معمور بالخير ، يقومون ليله إيماناً واحتساباً ليُغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ، كما قال رسول الله (ﷺ) من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ويكثر فيه من قراءة القرآن ، تدبراً وخشية وعملاً بما فيه ، ونزول القرآن في هذا الشهر المبارك ، رمز تكريم وتفضيل لهذا الشهر ، ورمز يحملنا على تعهد القرآن فيه ، نخلوبه مع أنفسنا ونزن أعمالها بما جاء فيه ، فإن كانت الأعمال تابعة لما جاء به ، حمدنا الله وشكرنا له تفضله علينا بالاعانة والتوفيق ، ورجونا منه الثبات والاستزادة ، وإن كانت الأعمال غير ذلك ، اجتهدنا بالمطابقة والانقياد ، وما يُنقذ المسلمين مما هم فيه إلا أن يجعلوا قرآنهم وسنة نبيهم ، حكماً عادلاً يرجعون اليهما أفراداً ومجتمعين ، ويسعون لأن تكون أعمالهم مطابقة لما جاء بهما حذو القذة بالقذة ،

ورمضان المتقين هو الذى يقبل فيه الصائمون على مجالس العلم والموعظة واستماع القرآن، ينتفعون في دينهم وإصلاح أخلاقهم وتغذية أرواحهم ويتزهدون بهذه المجالس المباركة، عن مجالس لعب واللهو، وأكل لحوم الناس بالحق أو بالباطل، ويشمرون أن الكذب والغش والغيبة وأمثالها أدعى إلى إزهاق روح الصيام، من الطعام والشراب، فمن صام من المسلمين هذا الصيام، فقد صام حقاً وكان من المتقين، ومن لم يمنعه صيامه عما حرم الله، ولم يبعث فيه نشاطاً على عبادة الله، ولم يبت فيه العطف على عباد الله، فذاك الذي لم يصم، وإنما عذب نفسه بالامتناع عن الطعام والشراب، وليس معنى هذا أن يفطر، فإنه إن فعل فقد جمع السوأتين، وإنما عليه أن يجتهد ليقبل الله صومه، ويدخر له أجره، وقد قال الامام الغزالي ما معناه: الصوم ثلاثة. صوم العامة، وصوم الخاصة، وصوم خاصة الخاصة، أما صوم العامة فهو الصوم عن الطعام والشراب وما يفطر، وأما صوم الخاصة فهو الصوم عن الطعام والشراب وجميع ما حرم الله، وأما صوم خاصة الخاصة، فهو الصوم عن كل ما سوى الله، اللهم اجعل صيامنا صيام الخاصة، ووفقنا للقيام بطاعتك كما ترضى، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هكمة الصيام في مواجهة المعوزين (١)

ما يريد الله سبحانه وتعالى بفرض الصيام علينا ؛ اجاعتنا ، إثباتاً لجبروته ، وإظهاراً لقدرته في كل لحظة زمنية وكل حركة في هذا العالم الصغير ، والعالم الكبير ، دلائل على عظمته ، وأن ما في الكون في قبضته . وعند خلق الله خلقه ، على أن الأسباب فيه منوطة بعسبباتها ، وأنه كان يمكن أن يدعنا طيبين طاهرين ، منذ خلقنا ، لولا أن كوننا لأحرمة فيه ، ولا تفاعل بين الخير والشر ، ولا طموح إلى الكمال ، كون ميت ، لا يُعبأ به ، فإذا جعل في الإنسان منازع إلى الشر ، جعل تلقاءها في العبادات التي شرعها ما يكبح جماحها ، ويخفف من غلوها ، وهكذا فرض الله الصيام ، ليكافح في الإنسان شروره ومآثمه ، فيما كافحه الصوم وحاول إصلاحه وامتحن به المتعبد ، شح النفس الذي أورث في نفوس المسرفين ، غفلة أغريقهم ، حتى لم يعودوا يشعرون

(١) القيت في الإذاعة السورية في شهر رمضان

الا بوجودهم ، ولا يهتمون الا برفههم ، فهم لهم اعين لا يبصرون بها
ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم قلوب لا يشعرون بها ، قد غمرتها
المطامع والذات ، حتى افقدتها احساسها ، فلو أنهم امتثلوا امر الله ،
وصاموا له كما أمرهم ، لكشفوا بعض الشيء عما ران على ابصارهم واسماعهم
وقلوبهم ، فشعروا أن هناك من اخوانهم وجيرانهم وأولى ارحامهم
ومواطنيهم ، من يجوعون جوعهم ، ولكن عن فاقة رقلة ، وان منهم
لمن بأنهم رمضان ، فلا يكون جديداً عليهم ، فأن سنتهم كلها رمضان
جوعاً وفاقة ، ومن الصعب ان يتصوروا مرؤ حاجة المحتاجين ، وجوع
الجانحين وبؤس البائسين ، وهو عنهم في برج مرتفع من النعيم والمتعة
والامتلاء ، ويجب أن نعلم ان هلاك امة من الائم ، وإدبار امرها ،
ونذير السوء فيها ، أن يختلف الناس لا بالفقر والغنى ولا بالشهوة
والخمول ، ولا بالدهاء والغباء ، فكل هذا عريق في الطبيعة ، وانما ان
يسود شعور الناس بعضهم إزاء بعض ، فالفقير يحسد الغني ، والغني
لا يشعر بوجود الفقير ، والخامل يكيد اصحاب الجاه ، وصاحب
الجاه لا يكثر للخامل ، والداهية يعبث بالغني ، والغني مستعبد للداهية
فأية أمة هذه حالها . ليست امة واحدة وإن عاشت على أرض واحدة

في وطن واحد ، إذ لا تستطيع نكتيل قواها وتوحيد أجزائها، اتندفع
 نحو الحياة الحرة المثلى ، بل لا تستطيع أن تكون شيئاً يُعتد به ، مهما
 طال الزمان عليها، فالأمة الحقيقية لا بضجيج معاملها ولا بنيران مدافعها
 وإنما بتناسق مشاعرها ، ووحدة روحها ، وتبادل العطف والمودة
 والاخاء والنجدة بين أفرادها ، وفي حياة النبي (ﷺ) مع صحابته مثال
 رائع من ذلك كله ، فقد كانوا فعلاً كالبنيان المرصوص ، فاذا جهد
 غنيهم ، بمهارته وتعبه في تثير ماله ، فذلك لا ليعتلى على الناس بغناه ،
 ويظهرهم على أنه من ذرية آدمٍ غير آدمهم ، بل لينزل اليهم ويعيش
 معهم ، ويعمل على مواساتهم وتضييد جراحهم لا يتقيد بما وجب عليه
 من زكاة ، وإنما يجاوزها أحياناً إلى الاضفاف المضاعفة ، ينفقها على
 الفقراء والمساكين ، والعاجزين والمصابين، والفاقرين واللاجئين، وعلى
 ما كانت تحتاج إليها الدعوة الإسلامية الحبيبة إليه بسخاء من لا قيمة
 للمال لديه ، إلا بمقدار ما يشيد به بجد دينه وأمته ، وبمقدار ما ينفع به
 الفقراء والمعوزين ، أما حياة النبي (ﷺ) مع صحابته فلا تحتاج إلى تبيان
 فمع أن الله الذي أرسله قادر على أن يعطيه من الدنيا ، بمقدار ما أعطاه
 من الشرف والفضل والمكرمة، ومع أن أغنياء صحابته هزهم من التفاني

في حبه وإطاعته ، ما يرخصون له أرواحهم فضلاً عما يملكون ، مع كل ذلك ، لم يخطر له قط ، أن يطمع الى شيء مما يملكون ، أو أن يأخذ من أموالهم صدقات يبدخ بها كما يفعل بعض من يدعي الاقتداء به ، وإنما آثر أن يعيش مع صحابته واحداً منهم ، بل واحداً من فقراءهم ومساكينهم - ليكون بصورة واقعية عن كذب من الفقراء والمعوذين ، بواسيتهم بهذه المساواة ، وبإطف شقاوتهم بكونه مثلاً لهم ينالها ما ينالهم ، روى عروة عن عائشة أنها كانت تقول : والله يا ابن أخي ، إن كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، وما أوقدت في أبيات رسول الله (ﷺ) نار ، قلت يا خاله فما كان يُعيشكم ، قالت الاسودان التمر والماء ، وروى عن أبي موسى الأشعري قال أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً وازاراً عليظاً ، قالت قبض رسول الله (ﷺ) في هذين ، وعنهما قالت ، كان فراش رسول الله من أدم حشوة ليف ، هذا طعام رسول الله وهذا كساؤه ، وهذا فراشه ، وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين ضاعاً من شعير ، ومع كل هذه الحاجة للطعام لنفسه وأهله ، ما كان يأتيه شيء من الطعام هدية له إلا وكان يشرك فيه الفقراء ، بل يؤثرهم على نفسه ولو كانت به خصاصة ، روى عن أبي هريرة قال :

والله الذي لا إله إلا هو ، إن كنت لا أعمدُ بكبدي على الأرض من
الجوع ، وإن كنت لا أشدُ الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت
يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فرأى النبي (ﷺ) فتبسم حين
رأني وعرف ما في وجهي وما في نفسي ، ثم قال أبا هريرة ، قلت لبيك
يا رسول الله قال إلهي وإلهي فأتبعته فدخل ، فاستأذنته فاذن لي ، فدخلت
فوجدت لبناً في قدح ، فقال من أين هذا اللبن ، فقالوا أهناه لك
فلان أو فلانة ، قال أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله قال إلهي إلى أهل
الصفة فادعهم لي ، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها
شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فسألتني
ذلك ، فقلت وما هذا اللبن في أهل الصفة ، كنت أحق أن أصيب
من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاؤوا أمرني فكنت أنا أعطيهم ،
وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله
بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا فاذن لهم ، وأخذوا بمجالسهم
من البيت ، قال أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله ، قال خذ فأعطهم قال
فأخذت القدح فجعلت أعطيته الرجل فيشرب حتى يروي ، ثم يرد عليّ
القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروي ثم يرد عليّ القدح حتى

أنهيت الى النبي (ﷺ) وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه
على يده فنظر إلي فتبسم فقال أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال بقيت
أنا وأنت ، قلت صدقت يا رسول الله ، قال اقعد فاشرب ، فقعدت
فشربت فقال اشرب ، فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذي
بعثك بالحق لا أجده له مساكاً ، قال فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله
تعالى وشرب الفضلة .

فيا أيها الفقراء لا تأسوا على ما فاتكم من رغد العيش فاكم برسواكم
سيد الدنيا أسوة ، ويا أيها الأغنياء ما ينقص مال من صدقة أو إنفاق ،
واكم أيضاً بالبذل وإرخاص المال والايثار به برسول العالمين أسوة حسنة .

رمضان : موسم عبادة^(١)

ها قد مضى من هذا الشهر المبارك أكثره ، فليحاسب امرؤ نفسه ،
وليقدر عمله ، فان زاده الصيام دنواً من الله ، وابتماداً عن نزوات
الهوى والشيطان ، فقد صام حقاً ، ومن لم يفد من الصيام إلا الامساك
عن الطعام والشراب نهاره ، ليمدّ جوفه الامتلاء ساءه ، ثم هو في
انصياعه لنفسه الآمرة بالسوء ، وانكبابه على الملمات ، واستجابته
للاشيطان في اغرائه فيما يسخط الله ، كما كانت حاله قبل الصيام ، فذلك
الذي لم يصم ، بل أشقى نفسه بحرمانها واجاعتها .

وبموجب الله والملائكة والصالحون ، من امرىء مسلم ، يقبل عليه
موسم من أعظم مواسم العبادة ، ثم لا يرجح فيه ولو قليلاً ، إن لم يخسر
كثيراً . فليستدرك المتخلفون ، فما يزال في الوقت متسع ، وما زالت
الايام الباقية من هذا الشهر المبارك حافلة بالخير الكثير ان اراده ،

(١) القيت في الاذاعة السورية

وحافلة بالبرج لمن ابتغى الرّيح ، بل ان هذه الايام الباقية ، هي أعظم ما في هذا الشهر بركة وخيراً وربحاً ، ففي هذه الايام تتمتعن في الصائم قدرته على الصبر ، وفي هذه الايام تلمس ليلة القدر ، التي هي خير من الف شهر ، فمن اجتهد في الطاعة والعبادة فليزدد فان ما عند الله من الثواب لا يتفد ، ومن قصر عن هؤلاء ، فليجد ولياحق بهم ، ففي العبادات ، يجتاز الانسان المسافات ، بلحمات ، إن اتقى الله وخشع له ، ومن تخاف فلا يقنط ، وليعزم أمره ثم ليتقدم ، نادماً على ما فرط ، تائباً الى الله ، طامعاً برضاه ، بجده وعمله ، لا بأمانيه وكسله .

وبالطبع ما نريد بالحث على الرّيح ، الاقبال على حوزا كبر مقدار ممكن من العبادات الظاهرة فقط ، بل أن يهتم الانسان بنتائجها ، فما شرعت العبادات الظاهرة ، إلا لترويض الانسان على الانقياد لاوامر الله سبحانه وتعالى ، عند ذلك يقف دون الحدود التي رسمها الله له ، والحدود التي رسمها الله له ، هي النطاق حول حرية الطلقة ، له أن يفعل ما يشاء في هذا النطاق ، فاذا سلم هذا الحد من التجاوز عليه ، وتحصن به من أراد الطاعة والانقياد ، فقد استقرت أمور الناس . وارتاحت البشرية ، وعم الاخاء ، وزالت النفرة ، وفي هذا النطاق تعينت علاقات

الفرد مع الله ، وعلاقات الفرد مع الفرد ، وعلاقات الفرد مع الجماعة ،
والجماعة مع الفرد ، وعلاقات الجماعة مع الجماعة ، فإذا تبينت الحدود
بشكل واضح ، وليس في الاسلام - والحمد لله - إلا الوضوح وإلا
الاحتياط للمشاكل قبل أن تقع ، ارتفعت الخصومات ، وارتفع الناس .
وإذا جازز الناس حدود الله ، فقد اضطرب بينهم جبل المودة ، وكاد
بعضهم لبعض ، فكان التمدي والظلم ، والشر والأذى ، ومن يتعد
حدود الله فأولئك هم الظالمون ، إذن ليست العبادات الظاهرة هي كل
شيء ، حتى "تنتج" تقوى حقيقية ، والنقوى الحقيقية هي أن تكون
دائم الحذر من غضب الله ، وذلك بأن تأتمر بأوامره ، وتنتهي عن
نواهيه ، لا بما يوافق الطبع والهوى بل بكل شيء ، وإلا كنت كن
يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والمؤتمر بالأمر هو الذي يفعله
وإن أتى على غير ظاهر مصلحته ، والمنتهي عن أمر ، هو الذي يكف
عنه ، وإن أتى في ظاهر مصلحته ، وإلا فالدين لا يجوز أن يقسم على الأهواء ،
أو أن يسخر للمصالح ، وليس من حقه علينا ، إلا أن نمارس منه إلا ما
وافق أغراضنا ومصلحتنا ، فإذا أنتجت العبادات هذه التقوى ، فتلك
التي ينتفع بها المتعبد لنفسه ، وينتفع بها غيره ، ففي الاثر : من لم تنه

من إذ استمع القرآن بكى وخشم ، وشهد بأنه كلام فوق مقدور البشر ، وهو لا يزال على كفره ، ما كان منه ذلك إلا باستغراقه بدلائل الآيات البينات ، ورهبته مما فيها من تصوير للوعد والوعيد بهذا تكون العبادات رياضة روحية ناجمة ، تحمل الانسان على التقوى التي تلجئه الى حدود الله راضياً مغتبطاً ، ولعبادة قليلة ينشط اليها الانسان خاشعاً متفهماً ، خير من عبادات تملأ الليل والنهار ولكنها خالية جوفاء .



صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا ملاقة له ، فاذا عكف الصائم على
 قراءة القرآن يهدره هدرًا ، ولا يجاوز تراقيه ، وأوى الى المسجد بعد
 العشاء يتروح بعشرين ركعة ، وانصرف نهاره يلوك لسانه أوردًا
 وأدعية ربا لا يفقه معانيها ، إذا فعل ذلك كله ، ثم امتحن بالصدق
 فكذب ، وامتنحن في النصيح فغش ، وامتنحن بأن يرحم عباد الله فادخر
 أقواتهم وامتنص دماءهم ، وامتنحن بألا يأكل أموال الناس بالباطل
 فأكلها ، وبألا ينافق ولا يداهن ، فنافق وداهن ، وامتنحن بأن يتفق
 بسخاء وبغير مَنٍّ على الفقراء والموزين ، فأمسك ، ولم يطاوعه شحه
 أن يعطيَ حتى ما افترضه الله عليه . فهل تقرّبه عبادته الظاهرة من الله ،
 وهو جاهد في إيداء عباده ، وإذا قلنا ذلك ، فما أردنا ان يدع المتعبد
 هذه العبادات التي ندب اليها رسول الله (ﷺ) فرسول الله لا يندب الى
 امرٍ إلا وفي عقباه الخير ، وإنما أردنا أن يسعى بأن يقوم بالعبادات على
 وجهها ، وذلك بأن تفتح نفسه لها وتشرح بها وتخضع بتلاوتها ،
 وتستغرق بمعانيها ، فاذا كان القرآن لو أنزل على جبل لرأيناه خاشعًا
 متصدعًا من خشية الله ، فما بالناس لا نخشع نحن ولا نخشى ، أم ان في
 قلوب الناس ما هو أشد قسوة من الحجارة ، لقد كان في كفار قريش

وداع رمضان^(١)

مضى رمضان مثل ما مضى غيره ، وصار في ذمة الماضي ، يحمل في
إنبائه طاعة المتقين الذين أدوا إليه ما ابتغي منهم من صيام عن الطعام
والشهوات ومن صيام عن المحرمات والمكروهات ومن قيام بكل ما
نذبه إليهم من البر والاحسان والتصدق بقلب تنقى من الأدرات
ونفس تزكت من المآثر ، فيرفع كل ذلك الى ربه راضياً مستبشراً
راغباً اليه ان يكون من جزائهم عنده ان يفقر لهم ما تقدم من ذنوبهم
وان يثبتهم على ان تكون السنة كلها عندهم رمضان اقبالاً على الصالحات
وتنزهاً عن الآثام وترفعاً عن كل ما يدنس النفس وان يعينهم على ان
تكون احوالهم كل عمرهم تبعاً لما جاء به محمد رسولهم (ﷺ) وان يفهم
ما وعدهم من الجزاء على ما تحملوا لأجله من المشقات اما اوائلك
الذين لم يكثر ثواله ولم يشعروا بوجوده فسيحمل لهم في أثناءه سجلاً

(١) القيت في الاذاعة السورية .

من أعمال السوء قد اغرام بها نفوس لا ترى أمتنع من اتباع الهوى،
ولا أطيب من العبودية للشيطان وسيرفمه إلى ربه ممتعضاً متألماً،
ذاكراً أنه ضيف لم يسكرم هؤلاء مشواه، ولم يؤدوا إليه واجب الوفاء
ومع ذلك مسيرجو لهم الله أن يعينهم على أنفسهم، ويردّم عن غيبيهم
واسترسالهم، لماهم أن يكونوا في رمضان القابل أحسن حالاً، وأطيب
نفساً، وأدنى إلى الطاعة والالتقياد، وأما أولئك الذين صاموا ولم
يصوموا فحسبى أن يكونوا عند رمضان من الذين خلطوا عملاً صالحاً
وآخر سيئاً ..

انتهى رمضان وولى، وأسدل عليه الزمان ستاره، فما في مقدور أحد
أن يرجعه، أو أن يرجع فترة واحدة منه ليزداد فيه قربة إن كان من العابدين،
أو ينعم ما نقصه إن كان من المفرطين، أو يستدرك ما فاته إن كان من
المحرومين، لا يستطيع أحد أن يدرك ما فاته في رمضان، فإن يعود رمضان،
ولكن استدرا كع والقيام ببعض شأنه، أن تنضم هذه الفرصة فرصة آخر يوم
منه حين يستعد الناس للميد، ويقبلون على اتباع المنافع والكسب والحلوى
لأنفسهم ولأطفالهم، أن تنضم هذه الفرصة لادخال الفرح والسرور على
أطفال ينظرون إلى آباءهم نظرة انكسار، وآباؤهم تنفطر قلوبهم عليهم لأنهم لا

يُجدون ما ينفقون، فرحة هؤلاء الاطفال البائسين، واتقاذهم مما يباعون
من آلام في فقرهم وحرمانهم وعجز آبائهم، افضل عند الله من أكثر
أعمال البر، فمن كان في قدرته ان يخوض شقاوة بعض هؤلاء أو يخفف
منها، ويمسح بيد الاحسان قلوبهم، فليفعل افان مواساة عباد الله أرد على
المواسي طاعة وقربة من صيامه وقيامه، وهي غنيمة كبرى للمستطيع
فان الله ليتجاوز عن ذنب السخي، أما من صام وقام وأدى فرائضه
وسننه وكان قادراً على التصديق والبذل فلم يفعل، فانه ليكاد ألا يقبل له
طاعة منها ضحى في سبيلها من نفسه، وبهذا يمتحن الله عباده بالطاعة
فان بذلوا أموالهم وهي عزيمة غندم للفقراء والموزين فقد
استجابوا حقاً لربهم، وخضعوا لأمره، فاثابهم ورزى عنهم، وإن لم يفعلوا،
فليسوا بالمعابدین ولا المطيعين، فللمعبودية الطاعة، ولا طاعة لمن لا
ينقاد الا لما وافق مزاجه وسائر طبعه، فلهم أيها الاغنياء والموسرون
فكم بين جيرانكم وأرحامكم وعمالكم، وكم من الفقراء المتعفين بين
ظهركم، وكم من اللاجئين الذين كانوا في أوطانهم من المنعم عليهم في
بلدكم، كم من هؤلاء وهؤلاء يفتشون عما يسك أرواحهم فلا يجدون
واطفالهم ونسائهم في غمرة من الفاقة ساهون. وأما بعد، فقد أريد

والعيد فرحة الصائمين الذين امتثلوا النداء ربهم في قوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وقد اطلق لهم بالعيد ما قديم به في رمضان ، فغدوا إلى بيوتهم يكبرونه ويحمدونه على أن هداهم لطاعته ووفقهم للاذعان لأمره ، ثم ينصرفون ليسموا بتهنئين إلى زيارة أرحامهم وجيرانهم وأخوانهم ، يهللون ما انقطع من الزيارات ، ويجددون ما يلي من المودات ، ويهيدون ما كان من الصلوات ، والعيد ظاهرة اجتماعية قوية تتوافق بها روابط المواطنين وتمن بها أواصر المودة فيما بينهم ، فيتعاونون على الخير ويشد بعضهم أزر بعض في الحق ، وما لنا إلا أن نرجو الله أن تكون أعيادنا بهذه المثابة ، وأن تكون سبباً للاعتصام بديننا أو التمسك بتشريعتنا ، وأن تكون حافزاً لنا على تجديد الهمة ، وبذل الجهد للعمل على خير ديننا ودياننا وبلادنا أعاده الله على المسلمين وعلى العرب بالخير العميم ، وأعاده عليهم وهم أعزة موحدون تحت راية كتاب الله القائل : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٣	بالقول عما	القول بما
١٥	٧	الغاية	الغاية
١٧	٨	انى	أبذنى
٣٦	١٥		عندك
٤٠	٨	كال	كان
٦٩	١٥	منقادا	متقادا
٧٤	٢	الناص	الناس
٨٩	٥	يجدوا	يجددوا
٨٤	١١	تحقق	تحقيق
٩٩	٢	الصادقه	صادقه
١١٦	١٠	شم	شيم
١٣٢	١١	الاداره	الارادة
١٣٧	٨	الامثال	الامتثال
١٣٩	٥	فكل من	فكل في
١٤٧	٥	يكون لله	يكن الله
١٤٩	٥	المسلمون	المسلمين
١٥٤	٣	وان	إن
١٥٨	١	لا يبيع	لا يبيع إلا
١٧٧	١٠	ويذكرونها	ويذاكرونها
١٨٥	٥	قرار	كأنف

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٨٧	٤	أرهقت	أرهق
١٨٧	٩	ججيمها	وججيمها
١٨٩	٦	وتدرب	وتذوب
١٩٠	١٤	أنضانا	انضانا
١٩٢	٥	ينصرون	ينضرون
١٩٥	٤	ينحول	نبحول
١٩٥	١٠	جيد	صيد
١٩٦	١٣	المائويه	المائويه
١٩٧	٣	اي	الى
١٩٩	٦	صوت	صرت
٢٠١	١	يخرج	يمزج
٢٠١	١٤	واصلاح	وغايتها اصلاح
٢٠١	١٤	وغايتها اصلاح	واصلاح
٢٠٢	١	تدبر	يسر
٢٠٢	٢	يعرض	يعترض
٢٠٢	٤	ابواب العلم	ابوابها لعم
٢٠٤	١	تجمع	تجمع
٢٠٤	٢	الساقى	السامى
٢٠٤	٣	ما يؤذبه	يؤذبه
٢٠٤	٤	هذا الخلق	الخلق
٢٠٥	٣	وليرتد	ليرتد
٢٠٥	٤	اله	الها

ص ١٩٦ سطر ٦ وردت هذه الجملة في غير موضعها ويجب حذفها وهي :
بالمعجب أن يغلب وانما المعجب ان يغلب . ويموض بدلها لفظ : به

<u>صفحة</u>	<u>سطر</u>	<u>خطأ</u>	<u>صواب</u>
٢٠٥	٥	يُخْلَج	يُخْتَلَج
٢٠٦	١٥	نَعْتاً	يَفْتاً
٢٠٧	٥	وَتَحَقَّتْ	وَعَاثَتْ
٢٠٨	٣	مَعَ الْإِنْسَانِ	مَعَ أَنَّ الْإِنْسَانَ
٢٠٨	٤	لَسَمُو	بَسَمُو
٢٠٨	٩	لَا تُؤْثِرُ	لَا تُؤْثِرُ
٢٠٩	٨	وَبِلَى	وَبِلَى
٢٠٩	١٠	مَاضِياً	مَاجِئاً
٢٠٩	١٠	عَاتِباً	عَابِثاً
٢١٠	١٣	وَارْجَحْنِ	وَارْجَحْنِ
٢١١	٩	وَاحْتِشَاءَ	وَاحْتِشَاءَ
٢١٦	٢	يَطْمَعُ	يَطْمَحُ
٢١٦	١١	غَلِيظاً	غَلِيظَيْنِ
٢٢٠	١٣	الْمُطْلَقَةُ	الْمُطْلَقَةُ
وقع خطأ بترتيب الصحائف (٢٢٣) بدلا عن (٢٢٢) وبالعكس			
٢٢٤	٢	ابْنَانَهُ	ابْنَانَهُ
٢٢٤	٥	الْمَأْثَرُ	الْمَأْثَمُ